

عبدالحليم عباس

اقرأ

ابونواس



دار المغارف بمطز

عبدالحليم عباس

ابونواس

٢١

اقرا

تصدرها مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر
بمعاونة الدكتور طه حسين بك وأنطون بجيل بك
وعباس محمد العقاد وفؤاد صروف



جميع الحقوق محفوظة
للمكتب المعارف وكتبها بصر

بغداد

عن يونس بن عبد الأعلى قال : قال
لى الشافعى يا يونس هل دخلت بغداد
قلت لا . قال « إذن ما رأيت الدنيا »
(تاريخ بغداد الجزء الأول)

فى عام خمسة وأربعين ومائة بعد الهجرة ، انحدر من الهاشمية
قرب الكوفة فتى أسمر نحيف القامة مهيب الطلعة ، ثم أصد فى
السهل الممتد بين دجلة والفرات ، وجاس خلاله يتنسم الأرياح ،
ويسائل ساكنى البيع فى هذه الأمكنة عن موضع صالح يبنى
فيه مدينة .

لم تبخل عليه الريح ، ولم يرض عليه ساكنو البيع ،
فدلوه على خير مكان فى هذا السهل العريض . فأمر أن تخط
على هذه الأرض خطوط من رماد ، ثم يوضع على هذا الرماد
حبُّ النفط ، ولما التحمت النار وصارت طرائق نظر إليها وقال :
هكذا يجب أن تكون مدينتى .

هذه المدينة هي بغداد ، وهذا الفتى هو رجل بنى العباس المنصور ،
أما الخطوطُ من رماد ، فهي بعد حين القصور الرحبة ، مدارجها
من مرمر ، وسرورها من عاج ، وستورها من ديباج .
وفي هذه السنة أيضاً — على حدِّ بعض الأقوال — ولد في
قرية من قرى الأهواز ، لرجل مهاجر من دمشق وفتاة فارسية
طفلٌ أسماه « الحسن » .

قامت مدينة المنصور ، وحيء من الشام وواسط بالأبواب
التي توضع على الأسوار كما جىء بأبواب « مدينة الزندور التي
بنتها الشياطين ^(١) » فنعيم الخليفة وقرت عينه ، بعد أن أخافته
الهاشمية . فهو الآن بين أنهار لا يأتيه عدوه منها إلا على جسر أو
قنطرة كما قال له البطارقة أصحابُ البيع . ولكن الأنهار تحمل
غير الميرة ، تحمل السنديات والهنديات والجواري الروميات .
والعدو قد لا يجيئ على جسر أو قنطرة ، فقد يكون في قلب المدينة .
وقد يجيئ مع الجواري الآتيات فلا تستعصى عليه أبواب الشياطين
ولا تهدم من تحته القنطرات والجسور .

نما الطفل الذي ولد بالأهواز وترعرع ولكنه لا يزال

(١) تاريخ بغداد الجزء الأول

حائراً بين البصرة والكوفة ومضارب الأعراب . تفيض أنهار
 بغداد فإذا الأرض مخصرة ، وإذا الجنائن موقنة ، والميرة لا تزال
 ترد ومعها الجليبات من الجوارى ، فتزيد النفوس تهالكاً على
 الترف وحباً للاستمتاع . ولقد استوفت بغداد كل غناها وبذخها .
 ولبست حدائقها منتهى حسنها وجمالها . ومشى المترفون إلى أقصى
 غايات الترف واللهو . فجاءها — فى زمن الرشيد — الطفل الذى
 ولد بالأعواز بعد أن تبدل اسماً باسم فهو أبو نواس . جاءها
 ليأخذ مما تأخذه طبقة المترفين التى يلتصق بها ، ويحرص على أن
 تكون له بها صلة ، ولما لم يكن به تغف ولا حشمة ، فقد انطلق
 مع المنطلقين ، ولها مع اللاهين . وكان به سعار إلى اللذة ، فلم تبخل
 عليه بغداد بلذة تشتهيها نفسه ، أو يصورها خياله . افتنت فى
 تقديم هذه اللذائد فافتن فى التغنى بها حتى كاد يلحق أمره وأمر
 هذه المدينة — لغرابته وطرافته وبالع ترفه ومجونه — بحديث
 الأساطير ... أمضى عمره سادراً لا يرعوى ، ومغموراً فى حدائق
 الققص وقطر بل لا يفيق ، والناس من حوله لا ينكرون من
 أمره كبير شيء ، ولكنهم يعذّلونه أن صرح بحديث هذا اللهو
 والمجون . وأبت عليه ملكته الفنية ، وإيثاره للصدق ، وكرهه

للرياء ، إلا أن يجهر به ويصوره على حقيقته وواقعه .

ودع التستر والريا ، فما هما من شائيه

لم يكن هذا الفتى بدءاً في عصره ، ولكن عصره كان بدءاً في العصور . فلم ير العرب لهم من قبل مملكة كهذه تمتد غرباً فتضم في طريقها الشام ومصر ، ثم تلتهم شمال افريقية حتى المحيط ، ويظل جناحها الممتد إلى الشرق ممالك ودولاً حتى الهند والصين ، ويدين لها في الشمال والجنوب أجناس مختلفة وعروق متباينة . . . وتتضافر هذه الدنيا على إسعاد مدينة بغداد فتُرسل إليها ذهبها وفضتها ، ومن ترفها ومجونها ألواناً جديدة لم يسمع بمحدثها الناس ، والناس في هذه المدينة عجيبة من العجائب . فليسوا إلى أمة واحدة وإنما هم إلى أمم مختلفة المشارب ، متباينة العادات . فهم فرس وعرب وكرد وترك وسريان وهنود . وهم بيض وصفر وسمر وسود . وهم مسلمون ونصارى ويهود ومجوس . وهم غير هؤلاء أجناس وطوائف وأديان لا تدخل تحت حصر . . . وكل هؤلاء تضمهم المدينة المسورة التي قال بُناتها : لا يأتيها العدو على جسر أو قنطرة « بين دجلة ودجيل تقع المدينة التي تجبي لها كنوز الأرض وتجمع إليها كل إنسان ،

وهي أسرع ذهاباً في الأرض من الحديد الحماة^(١) .

هل استوفت المدينة كل حظها ؟ لا ، فلا يزال في نفوس أهلها الفرس والعرب بقية من ورع ، وفضلة من تعفف وخلق محتشم . فليجئها مع كل هذا آراء وأفكار ، وكتب مخطوطة تهون أمر الورع ، وتحل من قيد الخلق المحتشم . . ثم توفي — الرشيد — وجاء الأمين « وكان الترف في القصور إغراقاً فأصبح شذوذاً وانحرافاً » ، فتفتحت أبواب القصر لطائفة أخرجهما الغواية عن كل عرف ، وحلتها من كل قيد . وكان من بينها رجلنا الخمور في حانات بغداد ومنازه دجلة والفرات ، فشدا مع الشادين ولها مع الماجنين العابثين .

ولكن الخمر التي أدمن شربها صرفاً وممزوجة قد فعلت بصحته فعلها . وشهرته السيئة قد جعلت سيده رب القصر يتحاشاه ، بل يضيق عليه ، ويباعد ما بينه وبينه . وكأنما أحس أن مراعٍ لهوه ستأخذ من بهجتها الفتنة ، وتأتي على جمال بغداده الحرب المنطلقة فأغمض عينه في عام سبعة وتسعين ومائة ومات^(٢) .

(١) حديث ضعيف

(٢) ماورد بهذا الفصل من أساطير وحقائق فمن تاريخ بغداد للخطيب

جوار وخمور وأشياء بينهما

قد يثرى العصر ، وتصح سياسته ، وتنشط فيه الحركة العلمية والأدبية ويمد لهما في الحرية ، ولكنه ليس بالعصر العباسى إذا لم يدخل في حسابه حديث الجوارى ومجالس الشراب ، وما يتصل بهما وما يمت إليهما من غناء وطرب ، وما يتبع الغناء والطرب . فلقد كثرت الجوارى في هذا العصر ، وكثرت الخمر وازداد شاربوها وشاع الغناء واقتن الناس فيه . وقارىء أدب هذا العصر لا يزال يقع على مجالس شراب ، ويهفو سمعه لغناء مستطاب ، وتطالعه في كل حين وجوه جوار سافرات أو منتقبات ، والشراب والغناء من مستلزمات الترف والثراء . أما الجوارى فهن يتبعن هذين ولكن لا بد من أن يمهد لهن سبب آخر . فما هو ؟ ؟

جاءت الجوارى وعرفهن العرب مع الفتح . وساعدت حالة الثراء والاستقرار في عهد الرشيد على الإكثار منهن حتى بلغت في قصره « ألفين » كما روى صاحب الأغاني . وغالوا بهن حتى بذلوا فيهن عشرات الألوف من الدنانير فقد اشترى الرشيد واحدة

بمائة ألف دينار . وأوقر الأمين زورق عمه جعفر الهادي ذهباً ثمناً
لجاريته « بذل » التي لم تطب نفسه عنها هبة أو بيعاً ، فأخذها
الأمين مع هذا الثمن على حال تشبه الغصب . والجارية تقوم بما
لا تقوم به « الحرة » . فقد يكفي هذه محتدها ونجارها ، أما تلك
فلا بد من صفات وخلال تلوبها . وهذه الصفات والخلال
ترجح في الميزان على صفات « الحرة » وخلالها . فأول ما يطلب
من الجارية الخلق في الغناء ، وإذا حذقت الغناء فقد اتصلت
بالأدب ، وروت الأشعار . وقد يصل الثقيف بالجوارى إلى حد
أن ينظم الشعر ، ويجارين بعد ذلك فحوله كما كانت تصنع
عنان جارية الناطفي . فلها مساجلات مع شاعرنا النواصي ، ومروان
ابن أبي حفصة . وقد ذكرت كتب الأدب أنه دخل عليها هذا مرة
ومولاهما يضربها فارتجبل قائلاً :

بكت عنان فجرى دمعها كالدر إذ ينسل من خيطه

فأجابته على البديهة :

فليت من يضربها ظالمأ تحجب يمناه على سوطه

ويظهر أنه كان لعنان هذه ما يشبه الصالون يجتمع فيه
رجال الفكر والشعر ، ورواد اللهو والاستمتاع ، وتجري في ندوتها

مطارحات في الأدب وفي الغزل مجمعة حيناً ، سافرة أحياناً . وحديث هذه المجالس يذاع وينشر حتى يصل إلى قصر الرشيد فيرغب إلى مولاهما في شرائها ولكنه يشتط في الثمن . ومثل عنان هذه في الثقافة ورواية الشعر «عريب» جارية المأمون ، و «دنانير» جارية يحيى بن خالد ، وعشرات مثلهن حذفاً في الغناء وبراعة في الشعر . وألوف دونهن في هذا وإن لم يكن دونهن في الظرف والحسن ولين الكلام .

حدث محمد بن يزيد عن أحمد بن صدقة قال : « دخلت على المأمون في يوم الشعانين وبين يديه عشرون وصيفة رومية مزريات قد تزين بالديباج الرومي ، وعلّقن في أعناقهن صلبان الذهب ، وفي أيديهن الخوص والزيتون . فقال لي المأمون : ويلك يا أحمد قد قلت في هؤلاء أبياتاً فغنّني بها ثم أنشدني :

ظباء	كالدنابير	ملاح في المقاصير
جلاهن الشعانين	علينا في الزنانير	

فحفظتها وغنّيته فلم يزل يشرب والجواري يرقصن بين يديه أنواع الرقص من «الدستبند إلى الايلا» حتى سكر فأمر لي بألف دينار ، وأمر بأن ينثر على الجواري ثلاثة آلاف دينار . «

هذا مجلس ومثله عشرات المجالس .

وأصبحت التجارة بهؤلاء الجوارى شيئاً رابحاً . فعمل أصحاب هذه التجارة على جلبهن من سائر أطراف المملكة متعددة الأعجناس والألوان . وكان منهن الجوارى اللاتى نشأن فى البصرة والكوفة والحجاز ، وعرف الناس والشعراء خاصة لكل جنس جماله الذى يمتاز به . فهناك ما يقوله النواسى فى جارية رومية .

أبصرت فى بغداد رومية	تقصر عنها كل أمنيـه
قصرية الطرف وشامية الـ	خلوة فى نكهة زنجيه
صفدية الساقين تركية الـ	ساعد فى قد طخاريه
هندية الحاجب نوبية الـ	تخذين فى زهو عباديه
حيرية الحسن كيانية الـ	أرداف فى لية عاجيه

ودخلت هؤلاء الجوارى الخدمة العامة . وفى أشعار النواسى ورفاقه ما يدل على أن تلك الحانات التى كانت تفتح لهم أبوابها فى أنصاف الليالى كان يقوم على الخدمة فيها جوار يحسن مع بيع الخمر بيع الصبابة والغزل .

فما عسى أن تصنع هذه المغريات فى أعصاب أبى نواس ، الذى لم تعنه النشأة الأولى على سلوك الطريق الوسط فى الحياة ، لقد تغزل بالجوارى ، وذكر منهن فوق العشر ،

وشبب بدنانير، وأحب جنان، وتغزل - ولم يسم - بكثير غير هؤلاء. ويقال إن عنان غلبته في مجال الأدب المكشوف. ولم يستغرب الناس ولم يستكثروا من جارية أن تغلب شاعراً خليعاً في أدب عارمة مضوح..

أما الخمر فقد عرفها العرب وافتنوا فيها - في الجاهلية والإسلام - وذكر صاحب نهاية الأرب أن أنس بن مالك قال: « حرمت الخمر ولم يكن للعرب عيشٌ أعجب منها وما حرم عليهم شيءٌ أشد من الخمر » ولما أنزل التحريم امتنع العرب عن شربها. وكان شاربها يتستر في أمره، فإن ظهر حُذِّ، وبقى الأمر كذلك حتى جاءت الدولة الأموية فشربها بعض خلفائها، واشتهر بشربها الوليد ويزيد. ولكن أمرهم في شربها بقي يروح بين التستر والظهور ويحمل - دوماً - على محمل الغرابة والاستهجان، حتى جاء الدور العباسي. فلما عنها المنصور بإقامة الدولة ثم شربها الهادي. أما المهدي فإنه وإن لم يشربها فقد عفا عن شربها. ذكر صاحب العقد « أن إبراهيم بن هرمة سأله أن يجعل جائزته كتابته إلى عامله على المدينة أن لا يحده على شراب. فاستهول تعطيل حد من حدود الإسلام ثم كتب لعامله « من جاءك

بابن هرمة فاجلده مائة واجلد ابن هرمة ثمانين » . . فكان
ابن هرمة يقول : أين من يشتري الثمانين بمائة .

شغف الناس في هذا العصر بالخر ، ثم شغفوا معها بأكثر
من ذلك فقد أغرموا بالنقاش في تحريمها أو عدمه . والأدباء
والشعراء وإن لم يجيزوا لأنفسهم ما أجاز به ابن قتيبة بعد ذلك
من القول في كتابه الأشربة « من أن الحرم بالسنة فيه فسحة
كالقليل من الديباج والحرير ومن الخر غير خر العنب لم
تمسه نار » . أجازوا لأنفسهم شرها والجهر بالوله بها . . .
بعد أن تعطل أمر إقامة الحد فيها .

ومع الخر والجوارى يحىء الغناء . فقد ملأ القصور والدور
وأحكمته الصنعة البارعة ولون الشعر المعجز الذى يتغنون به .
فأخرج الوقور عن وقاره . وهل جاء بعد الغناء شئ ؟ ؟ لكم
كنا نتمنى أن نقول لا ، ولكن لا هنا غير مستطاعة . فقد
جاء الشذوذ الجنسى والميل المنحرف . شاع حب الغلمان . وقد
يكون هذا الشذوذ موجوداً بكل مكان وكل زمان ، ولكن
الجهر وعدم التستر منه وأن لا يرى فيه صاحبه عاراً ، فذلك حالة
لا نقول إنها مقصورة على هذا العصر ، ولكنها أشيع فيه منها

في غيره من الأعصر. أخرجهم الشذوذ أو أخرج الكثير منهم إلى
أن يقيسوا جمال الجارية إلى القدر الذي يشبه فيه جماها جمال الغلام.

أفديك خذها من يدي وهات عذبي حب غلابات

وتغزل بالغلمان غزلاً مكشوقاً جلّ شعراء هذه الفترة ومهما افتنوا
في الغزل بهم فشاعرهم في هذا الضرب من المنكر « أبو نواس ».

الناس

هم الذين يعينهم الفضل بن يحيى « زبدٌ جفاء ، وسيلٌ
غشاء ، همُّ أحدهم طعامه وشرابه ». فأين مكانهم في دنيا بغداد ؟
يمرُّ التاريخ العربي بالعصور التي يؤرخها ، فلا يصف إلا ملوكها
وقوادها ووزراءها ، وذوى الجاه فيها . وليس هؤلاء أهل العصر ،
بل هم جزء ضئيل منه . إن الذين لا يؤرخهم هم أهل الذين
يكذبون ألوان الكد ، ليدفعوا ما عليهم من مال ، ويوفوا بما
عليهم من خراج ، ليهيئوا لسادتهم العيش المونق ، والحياة الرغدة .
وسبيل الباحث عن هؤلاء الناس أن يقف عند اللوحة التي
تمرّ عرضاً في كتب التاريخ ، والطرفة التي ترد في معرض الفكاهة
والتندر في كتب الأدب ، ثم يضم هذه اللوحات ، والفكاهات ،

فيخرج بصورة لهم إن لم تك صادقة الأجزاء ففيها الملامح التي تدل على هذا المخلوق « الذي هو الناس » فكيف كانوا في هذا العصر الذهبي بين العصور ؟ !

كانوا جهلة في عهد النهضة العلمية ، وليست هذه الحال بالمستغربة في عهد لم تنشأ فيه المدارس العامة . فقد روى الطبري ، أن المأمون أراد أن يلعب معاوية ، فقال له يحيى بن أكرم : إن العامة لا تحتمل هذا ، فركن إلى رأيه ، وحدث به ثمانية أحد المعاصرين فقال له : والعامة في هذا الموضع الذي وصفها يحيى ، والله لو وجهت إنساناً على عاتقه سواد ، ومعه عصا لساق إليك بعصاه عشرة آلاف منها ، والله ماضى الله أن سواها بالأنعام (إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً) ثم ذكر أنه مرّ بشارع الخلد ، فإذا إنسان يبيع أدوية وهو ينادي : هذا الدواء لبياض العين ، والعشا والغشاوة ، والظامة ، وضعف البصر ، والناس قد انثالوا عليه ، فقلت له : يا هذا إن عينك أحوج إليه فلم لاتستعمله ؟ ؟ فقال : أنا في هذا الموضع منذ عشر سنين ، ما مرّ بي أجهل منك ، ثم قال : أين يا جاهل اشتكت عيني ؟ ؟ قلت : لا أدري . قال : بمصر . فأقبلت على جماعة فقالت : صدق الرجل . أنت جاهل ، وهنت بي ،

فقلت : لا والله ما علمت أن عينه اشتكت بمصر ، فتخلصت بهذه الحجة . وايسر هذه الحكاية بالمتخيرة من بين تلك الحكايات التي تبين مقدار جهل الناس في هذا العصر . فقد ذكر في الجزء الثانى من كتابه حكاية الذى كان يظن أن فاطمة رضوان الله عليها هى زوجة النبي صلى الله عليه وسلم . وذكر الجاحظ عشرات مثل هذه الطرف .

وكانوا فقراء ، يتعيشون بالنهب ، والسرقات . وثمرت الفتنة فى زمن الأمين ببغداد فاذا آلاف العيارين العراة .

واحد منهم يشد على ألفين عريان ماله من إزار
ويقول الفتى إذا طعن الطمينة خذها من الفتى العيار

ويقول فيهم عمرو الوراق :

عرباب ليس بنذى قبيص يغدو على طلب القبيص

وتكشفت ببغداد المترفة عن آلاف مؤلفة من السفلة الرعاع .

وآلاف مؤلفة من الشطار الذين لا يملكون من أسباب العيش غير أدوات الجريمة .

ليس له مال سوى مطرد مطردة فى كفه رأس مال

أين كانت هذه الآلاف ؟ كانت ببغداد ذات الخمر والقيان

والكواعب والعلمان ، إن هؤلاء الناس حجزتهم الحكومات

القوية وزواهم الجهل والفقر عن أعين المؤرخين في غير أوقات الحروب التي يساقون فيها للذبح ويقدمون قرايين رخيصة أو غالية على مذبح المربح .

يقولون إن الأديب يمثل عصره . فهل مثل شاعرنا النواصي هؤلاء وهو من أكابر أدباء هذا العصر ؟ لم يمثلهم هو ولا مثلهم غيره . لم يعرف النواصي من الناس في عصره إلا من هم « على رأس الهرم » كما يقولون . أما الناس الآخرون فلم يعرفهم فلندعهم فحديثهم يطول ، ولنسرمع شاعرنا المفتون ببغداد غير بغداد الناس من مجلس قينة إلى ظل جارية إلى حديث شراب .

نسب الشاعر ونشأته الأولى

ولد في عام خمسة وأربعين ومائة ، وإن شئت ، نزلت بهذا العام إلى ستة وثلاثين أو صعدت به قليلاً إلى تسعة وأربعين بعد المائة ، ولك في هذا حجتك من أقوال المعاصرين وغير المعاصرين ممن كتب عنه . ولا تستطيع أن ترجح رواية على رواية لأن أكثر من روى عاماً روى غيره ولم يرجح . وكما تختلف السنة التي ولد فيها ، تختلف البلدة . وقصارى ما يستطيع الباحث أن

يقول إنها في الأهواز . وهو يأخذ بهذا القول لا على سبيل التحقيق ، ولكن برأى الكثرة التي كتبت عنه ، وإن كان هنالك من يقول إنه ولد في البصرة . وسيان ولد بهذه أم بتلك ، فلم يعرف له موطناً إلا هذه الأخيرة . والذين يقولون إنه ولد في غيرها يذكرون أنه جاء إليهم مع أهله طفلاً في الثانية أو السادسة من عمره . ففي البصرة أمضى سنى الطفولة والشباب ، وأقام بها حتى الثلاثين من عمره . يقول ابن قتيبة : « وكان بصرياً » ويقول هو :

وإن أك بصرياً فإن مهاجري دمشق ولكن الحديث شجون
وأُمّه جُلْبَان « امرأة فارسية » لا اختلاف في اسمها وتُجمعتها .
وإن اختلفوا في صنعتها . فهي تصنع الخيزران ، وهي تحوك الثياب .
ومن هنا نعلم أنها صنّاع اليد . وأبوه هانيء أو هنيء من دمشق
من جند مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية . جاء الأهواز للرباط
ورأى جُلْبَان على ضفة نهر من الأنهار ، فأعجبته ملاحظتها فتزوجها .
ولا سبيل إلى معرفة أى عمل آثر هذا الدمشقي بعد انحلال جند
مروان ، وانتقال الملك إلى بني العباس . ولكن صناعة الحياكة
ورعى الغنم تتردد في بُجَلٍ مبهمَةٍ ، وعلى السنة شائئ فضل ولده .

وحفظ هذا الجندي من جملة ما حفظ من أخبار أهله في الشام أنهم من أصل يمنى ، ومن قبيلة الحكم بن سعد العشيرة ، إحدى أنخاذ قبيلة مذحج ، ولعله ذكر أيضاً أن جدّه من رجال الأمير الجراح ، فقال الناس إنه مولى لهذا الرجل الكبير الذى يصفه التاريخ بالصلافة والشدة وحسن الاستقامة فى ولايته . ولم يعينوا نوع هذا الولاء ، والأرجح فيه أنه من الولاء الذى يتقرب فيه العرب بعضهم من بعض بالجوار أو الحلف أو الإحسان . وقد دعا النواسى نفسه مولى للفضل بن الربيع حينما أحسن اليه وأطلقه من السجن . أصبحت غير مدافع مولا كما والحظّ لى فى أن أكون كذا كما

ولا شىء يمنع من تصور هذا . فالجراح كان فى الشام قبل أن يغادرها والياً على أرمينية ، ومقاتلاً فى بلاد الترك ، حيث استشهد . فليس من المستبعد أن يكون أهل هذا الجندي تقربوا اليه باليمنية ، ولازموه ليتقوا به ، وليكونوا منه بموضع بره وإحسانه . ولم يك هانىء بحاجة الى أن يكتر من حديث هذه اليمنية والفخر بها . وليس مضطرباً فى الحياة مما يحتاج إلى ذلك . ولكن الابن اضطرّ الى جعلها من المتهمة فهو الحسن بن هانىء الحكيم وله يقول والبة :

يا شقيق النفس من حكم نمت عن ليلي ولم أنم
وضاقت الأهواز بهذا الدمشقي فجاء البصرة العامرة ، يحمل
هذه الأسرة التي هي جُلبيان وابناه الحسن وأبو معاذ ،
واستوطنوها دار إقامة . ولما كبر طفله الحسن وأصبح بحاجة إلى
التعليم ، لم يرض عليه به وأخذه إلى من يقرئه القرآن ، فحذقه
ومهر فيه حتى أصبح موضع إعجاب مقرئيه . غير أن الدهر لم يدعه
ينعم بطفولته . فقد توفي في غصونها أبوه ، وكانت الأسرة من
رقة الحال بحيث احتاجت إلى معونة ولدها بعد أن تعدى دور
الطفولة فوضعتة أجيراً عند عطار في أسواق البصرة .

هذا هو النواصي في أسرته . لا تستطيع أن ترتفع بها ،
ولكنك تستطيع أن تنزل بها دركات ، وهي — كما ترى —
أسرة فقيرة ربة الأسرة فيها فارسية وربها عربي أصله من
دمشق وقبيلته يمنية . وأبو نواس يعرف أن مثل هذه الأسرة
لا يستطيع أحد التحدث عنها بلة الفخر والمباهاة بها . فقد ذكروا
أنه أمضى عمره يتستر على نسبه . فإذا لزمه « أبان » في الهجاء
من ناحية أمه وأبيه وقال له :

هانيء الجون أبوه	زاده الله هوانا
سائل العباس واسمع	فيه من أمك شانا

وإذا أوجعه الرقاشي من ناحية نسبه بمثل قوله :

نَبَطِيٌّ فَإِذَا قِيلَ لَهُ أَنْتَ مُوَلَّى حَكَمٍ قَالَ أَجَلٌ
هَجَاهُمَا بِمَثَلِ مَا هَجَّوَاهُ بِهِ ، وَأَوْجَعُهُمَا كَمَا أَوْجَعَاهُ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَجِدْ
فِي بَابِ الْفَخْرِ أَكْثَرَ مِنْ قَوْلِهِ :

إن تهجنى تهج فتى ماجداً لا يرفع الطرف إلى مثلكا
وتعزُّ بديوانه فلا تجد فيه ذكراً لأمه وأبيه ، والفخر بهما
أو بأبيه كما يصنع غيره من الشعراء . وهو إما أن يكون أثر
الصدق فسكت ، أو خشى الفضيحة فلم يحجر لسانه بشيء من ذلك .
وأبو نواس بطبعه يكره الفخر والتعظيم بالجدود . وقد يكون من
جملة البواعث على هذا الكره عدم قدرته على الفخر ، لأننا
نجد أنه يفخر باليمينية ويعتز بها :

وقال أمن تميم قلت كلا
بلى فازدهتنى للصبا أريجية
بل نحن أرباب ناعط ولنا
ونحن إذ فارس تدافع بهم
فانخر بقحطان غير مكشوب
ولكنى من الحى اليماني
يمانية إن السماح يمان
صنعاء والمسك من محاربها
رام قسطنطا على مراربها
خاتم الجود من مناقبها
ويفخر بنفسه قليلاً :

وما حامت عن الأحساب إلا لترفع ذكرها بأبي نواس

ولولم أرث فخراً لكأنت صيانتى فى عن سؤال الناس حسبي من الفخر
فلا يطمس فى ذاك منى سوقة ولا صاحب التاج المحجب فى القصر
والفخر بالقبيلة هو فخر عام . والقحطانية ليست بأسرة وإنما
هى عصبية . والذى يفخر بها وبنفسه يلذله — ولو فى وقت
الحاجة — أن يفخر بأسرته . على أن هنالك من يدفعونه عن
اليمينية ويوردون تأييداً لدعواهم هجاء إياها . ولا شك أن الذين
يدفعونه عن هذا النسب هم المضيرون الذين أوجعهم هجاء ،
وإلا فهجاؤه لليمن وحده لا يكفى إذا فهم على حقيقته ، ونظر
فيه إلى طبيعة النواسى الساخرة ، فهو قد مدح هاشم بن حديج
اليمنى ، وجاءه راغباً تخيب ظنه وزاد بأن فخر بقبيلته كندة :
رأيتك عند حضور الخوان شديداً على العبد والعبد
وتحتد حتى يخاف المجلس شذاك عليه من الحدة
وتحمم ذاك بفخر عليه بكندة فاسلح على كنده
وكندة ليست كل قبائل اليمن ، وإنما هى واحدة من كثيرات .
فلو هجاها رجل من مذحج ومن قبيلة الحكم بن سعد العشيرة أيراً
من يمينيته ؟ ثم عير ابن حديج بقتل محمد بن أبي بكر فذكر قبيلة
مضرية هى قریش

وما كان إيمانكم بالرسول سوى قتلكم صهره بعده
فلو شهدته قریش البطاح لما محشت ناركم جلده

وليس في هذا ما يجعله متذبذباً في نسبه .

ويظهر أن هاشم بن حديج أخرجه الهجاء عن طوره فأخذ يشتم قبيلة النواصي واحدة بواحدة :

أشتم خير ذى حكم بن سعد لقد لاقيت داهية تؤادا

ويبقى النواصي إلى رضاه فيعتذر إلى ابن حديج الاعتذار المخلص الذى فيه أكبر الدلالة على أنه كان يمينياً حقاً ، وأنه إن أخرجه الغيظ فشتم كندة ، لا يلبث أن يرعوى ويعود إلى رشده ، فيعلم أن كندة ومذحج وإن بعدت ، كلتاهما من اليمين . فما كان ليحسن مثل هذا الاعتذار لو لم يكن يمينياً :

أهاشم خذ منى رضاك وإن أبى رضاك على نفسى فغير ملوم
فأقسم ما جاوزت بالشتم والذى وعرضى وما مرقت غير أديمى .

وهى المرة الواحدة التى يذكر فيها والده . ولعله لو أسعفته القافية لترحم عليه فى البيت رقة تستدعى ذلك . ثم يقول فى هاشم وأهل اليمين :

إذا امتازت الأحساب يوماً بأهلها أناخ إلى عادية وصميم
إلى كل معصوب به التاج مقول إليه أناوى عامر ونعيم

على أن المهم فى حديث الأسرة والأرومة أثرها فى تكوين الشاعر . ولا ريب فى أن شاعرنا قد ورث عن أبويه صفات

وخصائص خلقية . ولكن من الإسراف - في غير طائل -
 البحث في شعره ومذهبه في الحياة ، ورد شيء أو أشياء فيهما إلى
 خصائص العرق الفارسي أو العربي . ذلك لأن النواصي قد طغى
 عليه مؤثر البيئة . فهو شاعر أسرف في المجون في بيئة أسرفت
 فيه ، وتهتك جل شعرائها . ومن الصعب القول كما قال القداحي :
 إن أبا نواس هان عليه العرب وتغنى بعيش الترف وعيش الفرس ،
 لمكان خؤولته منهم . فلهذا أسباب ليست من هذه ، سيراها
 القارىء مبسوطه في بحث العصبية .

وإذا كان النواصي فقد والده صغيراً ، فاعله لم ينعم بصحبة أمه
 طويلاً . فهم يذكرون أنها تزوجت رجلاً اسمه « العباس » ،
 ومن العبث البحث عن هذا العباس من هو ، ومتى تزوج
 بجلبان . فلقد هان على التاريخ ، فلم يذكره إلا حينما ذكر أنه
 تزوج بأم الشاعر . ولولا هذا الزواج لما ذكر . ويذكر ابن منظور
 أن له أختاً تزوجت بشخص اسمه « خرج القصار » . ويسمون له
 إخوة . والراجح أنه لم يكن له غير « أبي معاذ الذي كان عطلاً
 من كل شيء » ، إلا أنه أخو النواصي . وليس يضير أبا معاذ أن
 يسقطه النواصي من الحساب إذ يوجه الخطاب إلى جنان :

لا تفجى أُمى بواحدِها لن تخلفى مثلى على أُمى
فهو موجود على الرغم من هذا .

وحديث الأخت والأخ قريب من أن يكون صدقاً . فالنواسى
فى بغداد يذكر أن له ذوى رحم وأنه مكلف إيثارهم وبرهم ، وأنه
مضطر إلى هذا الإيثار والبر ولو كلفه أن ينتعل قدميه بدل ركوب
الدابة الفارهة وأن يزهد فى الثوب الثمين والملبس النفيس :

تقول لى الركبان مالك راجلاً وكنت ركوباً عصر نحن رجال
فقلت عدائى عن ركوب وملبس ذوو رحم آثرتهم وعيال
فمن هم هؤلاء ذوو الرحم أسرة أبى معاذ ؟ ربما ، وربما كان
معها أسرة شقيقته ، وفى شعره يذكر الأعمام والأخوال :

لو أن هذا كان فى بلدى أوضيت أعمامى وأخوالى
وذوو الرحم على أية صورة كانت قرابتهم للشاعر ، منهم جزء
من البيت والجزء الآخر هم العيال ، فمن أين جاء بهم الشاعر ؟
أحب أن أزعم هنا أن النواسى تزوج - على شكل ما -
ورزق أطفالاً

وأنه كان يسكن إلى أسرة فى بغداد - الأسرة التى كونها
هو - وهو زعم لاسبيل إلى تحقيقه من ناحية التاريخ . فالذين
كتبوا عنه ينفون ويثبتون ، ويمرون بهذا الجانب من ناحيته

سراعاً موقنين أن هذه الحياة العابثة المسرفة في المجون والخلاعة ،
لا تحتمل عيش الأسرة . وأوفى ما كتبه عن هذه الناحية
ابن منظور قوله إن أبا نواس تزوج وطلق في ليلته . ثم يضعف
الرواية إذ يذكر أن هناك من يزعم أنه لم يتزوج مطلقاً ، وما السبيل
إلى تأييد هذا الزعم إلا النظر في أشعاره . فهو يذكر في ديوانه
أن له ابنتين إحداهما اسمها « برّة » والثانية « لباب » ويقول
عن برّة « إنها الابنة التي لم ير أبوها غيرها » :

ألا إن بنتي بنت من لم ير ابنة	ولا أباً سواها قد تدر وتؤنس
فيا « بر » بريني الحياة وإن أمت	فلا تدخريني دمنة حين أرمس
فذاك ابن سوء لا يرى لعشيرة	صلاًحاً ولا يعطى اللواء فيرأس
تحب أباه حب من لا أباً له	وتذكره في الصدر وحشى فتأس

ويذكر « لباب » وهو في مصر :

لباب تكبرى فوق الحواري	فإن أباك أعتبه الزمان
متى أجمع أباً نصر ومصر	فإن الدهر بينكما مكان

ولا سبيل إلى الزعم بأن هذه الأبيات قد تكون مدخولة على
أشعاره . فالذي أدخل على شعره ليس من هذا وإنما هو من
أشعار الخمر والمجون . ولعل « لباب » هي التي يذكرها في قصيدته

التي يمدح بها الخصيب في مصر :

أبشرى يا بنتي بميرة مصر	وتنى وأسرفى في الأمانى
-------------------------	------------------------

وما أظن مجلس الخصيب يحتمل أو يفرض على النواصي أن
يكذب ويختلق ، ويدعى أن له ابنة .

وقد كان يكنى بأبي علي وكان يناديه بذلك الخليع الشاعر
والخصيب ، ولقد حمل هذه الكنية حتى موته .

فهل كان له ولد ذكر ؟ لقد رثى في بيتين ولداً له :

لعمرك ما أبقى لنا الموت باقياً نقر به عيناً غداة نؤوب
كأنى وترت الموت بابن أفاده على حين حانت كبرة ومشيب
ويقول في قصيدة ثانية :

تقول التي عن بيتها خف محملي عزيز علينا أن نراك تسير
ذريتي أكثر حاسديك بزورة إلى بلد فيه الخصيب أمير

فمن هذه التي خف عن بيتها مركبه ، وهو يرق لها فيطلب
إليها أن تدعه وشأنه ، ليكثر حاسديها ؟ لعلها «لباب» أو «برة»
ابنتاه ، ولعلها جارية من هؤلاء الجوارى اللاتي كثيراً ما كن
يهدين إليه .

ويقول وهو منصرف من السجن ، بعد أن شفع له الفضل
ابن الربيع لدى الأمين :

إني أتيتكم من القبر والناس مجتمعون للحشر
لولا أبو العباس ما نظرت عيني إلى ولد ولا وفر

ويكرر لفظة الولد كرة أخرى :

لو أن دور الموت واقية لغديتها بالمسك والوالد .
 وإذا كان من الممكن أن تنصرف كلمة الولد في البيت الأخير
 إلى غير مدلولها الحقيقي مما يحتمله الشعر ، فلا أظن أنه من الممكن
 أن تنصرف إلى غير معناها في البيت الأول ، ويبقى بعد ذلك
 المعنى سليماً . فالسجين الذي يقول لمنقذه لولاك لم أستطع أن
 أنظر إلى ولدي لا يستطيع أن يقول ذلك إذا لم يكن له ولد .
 وإذا أردنا أن نؤرخ عيال النواصي قلنا إنه ذكر إحدى
 ابنتيه في مصر وذلك بعد عام ١٨٧ للهجرة . ثم ذكرها بعد
 خروجه من السجن . فإذا كان بعد خروجه من سجن الرشيد ،
 ففي عام ١٩٣ . وإن يكن من سجن الأمين ، ففي عام ١٩٥ هـ .
 ثم رثى ابنائه ، ويحتمل أن تكون ابنة ، فاللفظ هنا لا يقصد به
 التحقيق ، وإنما هو لبيان مقدار الإعزاز والتفجع ، بعد أن
 حانت منه كبرة ومشيب . ولعل ذلك بعد السنين التي ذكرناها .
 وحكى « الصولى »^(١) عن محمد بن نافع — في معرض حكاية
 عن الشاعر بعد موته ، أن الله غفر له بأبيات قالها ، فأتى أهله

وسألهم عن غرفة الشاعر فلما رأوه أجهشوا بالبكاء ، ودلّوه على الغرفة ؛ ويهمننا من الحكاية كلمة الأهل ؛ والنواسى يردد كلمة أسرتى « وتقديك أسرتى » ، وهى أبيات لا نستطيع أن نوردها سنداً لما نذهب إليه ، إذ كانت مما يجوز أن يقوله الشاعر ثم لا يقصد مدلوله . ولكن هذه الكلمة إذا جاءت بعد الذى أوردناه كانت خليقة أن تحمل على معناها الحقيقى ، وهذا ما نرجحه فهل سكن الشاعر إلى زوجة ؟؟ أكثر الظن أن النواسى لم يتزوج كما تزوج الناس ، وإنما كان يسكن إلى هؤلاء الجوارى اللاتى يهدين اليه ، أو يشتريهن إذا قدر ، وهو زعم « مقبول » بالنسبة الى ذلك العصر ، عصر الجوارى والإماء .

وتزيّد الناس عليه فى هذا الباب ، ونحلوه أشعاراً لا يستقيم أمرها إلا إذا لم يتزوج . فلم يزوجه ، وضنوا عليه ببنت أو ولد . ولا سبيل لباحث إلا أن يحسب حساب هذه الزيادة على هذا الشاعر فى باب المجون ، وكل ما يتصل به .

علمٌ ولهوٌ

من حسن حظ النواصي وحظ العربية أن كانت البصرة في ذلك الحين مركزاً من مراكز الثقافة والعلم ، لا ينافسها في موضعها منهما إلا حاضرة الملك « بغداد » . ففي البصرة من يحدث فيجيد الحديث ، ومن يروى عن العرب فيكون الحجة في الرواية وصحة الاطلاع كالأصمعي وأبي عبيدة الذي استطاع أن يقول — كما يروى صاحب الفهرست — ما التقت فرسان في جاهلية أو إسلام إلا عرفت الفارسين والفرسين . وفيها النحاة المجيدون ، والقراء الأعلام ، ومن انقطع إلى غريب اللغة كأبي زيد الأنصاري . وفيها شباب في سن فتانا النواصي ، يغدون على هؤلاء المبرزين يأخذون عنهم ويتعلمون منهم ؛ وقد بدأ بعض هؤلاء الشباب يشدون في الأدب ويقرضون شعراً ، ولا نعرف بأى إغراء — غير إغراء العبقرية والإلهام — هفت نفس النواصي إلى أن يغدو مع هؤلاء الشباب ليأخذ مما يأخذون . فقد سمع الحديث عن جملة من رجاله كحماد بن زيد ، ويحيى بن سعد القطان وغيرهما . ونظر في نحو سيبويه ، وتلمذ على أبي عبيدة ، وخلف

الأحر . واختلف إلى أبي زيد النحوى قبل أن يرتحل هذا
الحجة إلى بغداد في أيام المهدي ، وكان أشد هؤلاء الجهابذة تأثيراً
في نفسه أبو عبيدة وخلف الأحر . فقد تعدى الأمر بينهما وبينه
إلى شيء يشبه الصداقة . فهو يكبرهما وهما يكبراناه . يقول عن
خلف : إنه جماع العلم ، وعن أبي عبيدة معمر بن المثنى إنه أديم
طوى على علم ؛ ويقول عنه أبو عبيدة : ذهبت اليمين بمجد الشعر
وهزله ، امرؤ القيس بمجده ، والنواسى بهزله . وذكروا أن خلفاً
الأحر لم يأذن له بنظم الشعر حتى أحفظه جملة صالحة من أشعار
العرب ، ثم طالبه بنسيانها . وهى طريقة بارعة فى الدرس اهتدى
إليها هذا الشيخ المنقطع له . فقد أراد أن يتمثل تلميذه الشعر
الذى حفظه ليرد إليه معناه من وراء العقل الواعى ، بعد أن يعمل
فى هذا المعنى عمله الخاص . فإذا جاءت هذه المعانى أو شبهاتها
فى أشعار النواسى فهمى له بعد أن جرت فى لحمه ودمه . وقد عرف
لأستاذه فضلهما فرثاهما كليهما .

ولم يكتب النواسى بما وعى من علم يتصل بما هو مقبل عليه
من قول الشعر وتعاطيه ، بل راح يطلب كل علم ، ويتذوق كل
معرفة . يروى ابن خلكان فى تاريخه أن اسماعيل بن نوبخت قال :

« ما رأيت قط أوسع علماً من أبي نواس ، ولا أحفظ منه مع قلة كتبه . ولقد فتشنا منزله فما وجدنا إلا قطراً فيه جراز مشتمل على غريب ونحو لا غير » .

ويقول ابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء : « وكان النواسى متفنناً في العلم قد ضرب في كل نوع منه بنصيب ، ونظر بعد ذلك في علم النجوم » . وأورد هذه الأبيات وهي لأبي نواس في هجاء منغري اسمه زهير :

قل لزهير إذا حدا وشدا أقل وأكثر فأت مذار
سخت من شدة البرودة حتى صرت عندى كأنك النار
لا يعجب السامعون من صفتي كذلك الثلج بارد حار

ثم عقب عليها بقوله : « إن هذا الشعر يدل على نظر في علم الطبائع » . ومعاصرو النواسى ومن تلاهم لا يمترون في أنه قد أخذ من علوم عصره بحظ ، ويدل شعره على أنه كان له مثل هذه المشاركة ولا سيما في علم النجوم .

غير أن البصرة لم تكن كلها خالصة لحديث العلم والمعرفة ، فقد كان فيها أماكن للهو ، ومواطن للمجون ، وفيها جوار مولدات وجليات ، وفيها غير الجوارى ، الخمر وما هو شر من

الحمر وقد خلت حياة هذا الفتى من كل ما من شأنه أن يحدّ من نزوات الصبا الطائشة . فلا أب يحجزه بأوامره ونواهيه . وأكبر الظن أن أمه أصبحت « للعباس » . وإذا خلت حياة الفتى — في المدينة — من رقابة الأسرة فليست الغرابة أن تصير لهواً ، وإنما الغرابة أن تصير إلى لهو معه . كلف بالنحو وغريب اللغة ، ورواية الشعر ، ونظر في علم النجوم . وتساعد المدينة حالة العصر فهو عصر الترف والمجون فيخرج الفتى في لهوه عن حدود الاعتدال .

وقد يخلو عيش الفتى من رقابة الأسرة ولا يعدم مغريات المدينة والعصر . ولكنه لا يصير إلى عيش النواسى ولهوه ، فلا بد من علة تجمي مع هذه أو قبلها — تلك علة الأعصاب ، وحال المزاج . فأعصاب النواسى ومزاجه لا يساعده إلا على الإغراق في الشئ والإفراط فيه ، هي أعصاب شاعر مستوفزة مستعدة لإجابة أول داع .

مع والبة

ليس في سيرة النواسي ما هو أوضح وأغمض في الوقت نفسه من حكايته مع والبة . فإن شئت أخذتها على عجل وعلى علاتها كما رواها أبو الفرج الأصفهاني ، وهو أقدم رواة لها ، وكما أخذها الذين تلوه بتحريف قليل لا يمس جوهرها . رآه فاستملحه وسار به إلى الكوفة . ومن ثم نشأت بينهما علاقة مريبة .

ويضطرب مكان تلاقي النواسي بوالبة بين الأهواز والبصرة والكوفة . ويضطرب زمان هذه اللقيا ، بين سن الصبا ، وبين سن هي فوق الصبا . كان في السن الأولى أجيراً في الأهواز ، أو في أسواق البصرة ، ولكنه لم يلتق بوالبة إلا حينما استقدم أبو بجير الأسدي هذا الصبي مع من استقدمهم إلى الأهواز ، ليصنعوا له عطراً . وفي السن التي هي فوق سن الصبا لم يتلاق بوالبة مصادفة واتفاقاً ، وإنما هو يسعى إليه في الكوفة ليصحبه وليخرج إلى بادية بني أسد ليقوم أدبه ، وليطلع على لهجات العرب .

على أن مسألة الذهاب إلى بادية بني أسد تكاد تعين تاريخ

هذه اللقيا . فهو بعد أن أقام بها سنة - كما ترجح الرواية - ارتحل ووالبة إلى بغداد . ولا يضعف الرواية هنا أن ورد بها بعض المرات أن النواسى جاء البصرة منصرفه من الكوفة . إذ كان لا بُدَّ له من أن يعرج عايباً لأنه نوى أن يرحل منها إلى غير رجعة . وإذا صحَّ هذا ، وليس في عرض الرواية على أشكال مختلفة ما يمنع من قبوله ، فيكون النواسى حينما التقى بوالبة أو ارتحل لصحبته قد شارب العقد الثالث من عمره ؛ لأنه قدم دار السلام وهو ابن ثلاثين ، أو كان قريباً من هذه السن ، كما يفهم من سياق حكاية حياته ، وكما يرجح من كتب عنه . وإذا ما ثبت ذلك فقد انتفت العلاقة المربية بينهما فما سن الثلاثين بالسن التي تساعد عليها .

إن ذهاب النواسى إلى بادية بني أسد أمرٌ يكاد يكون غير مشكوكٍ فيه . وقد اعتاد شباب العرب الذين يرغبون في التمكن من الغريب والقول الفصيح ، أن يلهوا بهذه البادية ، في سنٍ مبكرة . ولكن النواسى لم يرسله أبوه إليها ولم يكن في وفرةٍ من الغنى ليذهب إليها متى أراد . فالأقرب إلى المنطق أنه لم يذهب إليها إلا بعد أن عزم على الخروج إلى بغداد ، وإلقاء رجال البيان

فيها . فأراد التحوُّطَ للأمر ، والتمكَّن من اللغة لينفى عن نفسه كل شكٍ في قدرتها على الوقوف على صعيد واحد مع أعلام الشعر في مدينة الرشيد .

وزهاب فتى فقير من البصرة ، لا أهل له يستطيع الاعتماد عليهم في تهيئة أمر سفره ، يحتاج إلى من يأخذ بيده ، ويعينه على هذه الرحلة التي قد تمتدُّ الى سنة . فليس ما يمنع أن يكون قد ذُكر له أبو أسامة والبة وهو شاعرٌ وظريفٌ ومن رجال بني أسد . فسار إليه يسأله العون ، وكان عند حسن ظنه فيه . فبعث به الى البادية مع وفدٍ من بني أسد . ولما عاد سار وإياه الى بغداد ، فلم يقو والبة على الصمود لرجال الشعر فيها ، ولم يكن صاحبه من الوفاء أو من الشهرة والقوة في الشعر بحيث يستطيع نصرته ، فلم يصنع شيئاً وعاد والبة الى الكوفة ولم يُعد .

هذا احتمال من جملة احتمالات تقال في علاقته بالبة . وهو وإن لم يك باقواها فليس بأضعفها ، يضاف إليه أن والبة كان شاعرا معروفا في الكوفة ، لا مثيل له في البصرة . لأن الذين نبغوا في هذه المدينة بعد كانوا لدات النواسى في السن . والنواسى

لا يثق بخلف الأحمر وأبى عبدة في نقد الكلام وتميزه تميزاً صادقاً فنياً كما يقول .

يزيد هذا الاحتمال قوة أننا نجد النواسى ينظم الشعر في الكوفة ، ونحن نعلم أن النواسى لم يستعجل النظم . فقد روى أنه قال : « إننى لم أنظم إلا بعد أن رويت لستين امرأة » . وإن لم يكن هذا القول صادقاً بتمامه ، فالذى نستخلصه منه صادق بتمامه ، وهو أن النواسى لم يستعجل النظم وأنه لم يذع شعره إلا بعد أن شبَّ عن الطوق وتمكن من اللغة وأكثر من رواية الأشعار . وقد ذكروا أنه جارى والبة في الارتجال عندما قصدا الحيرة . وهذه قصيدة بعث بها من الكوفة إلى رجل اسمه « العباس » في البصرة :

قولا لعباس لكي يدري	لغلام عك قوة المص
هذا وتذكرنى لكل أخ	يفشاك ذكر للملاح المارى
لتزيينى والشين ذكرك لى	فاد كرهناك والهم عن ذكرى
واقطع بسيف صارم ذكر	أسباب كتب بيننا تحرى
ماذاك إلا أبى رجل	لا أستخف صداقة البصرى
ذهبت بنا كوفان مذهبا	وعدمت عن ظرفائها صبرى

وهذه القصيدة تدلُّ على تمكن من القريض ، وتصرف به

وهي بعد — أي القصيدة — تدل على شيء آخر وهو تألمه من البصريين لأنهم ينحتون في أثلته ، ويدكرون هناته « فاذا ذكر هناتك واله عن ذكرى » وهو خطاب واحد ولكنه عم البصريين بقوله إنه لا يستخف صداقتهم .

ويعود النواصي مرة أخرى إلى ذكر البصريين في قصيدة أخرى قالها وهو في بغداد . وهي قصيدة تنضح بالألم من أصدقائه في البصرة :

أيا من كنت في البصر	ة أصفى لهم الودا
ومن كانوا موالي	ومن كنت لهم عبدا
ومن قد كنت أرعاه	وإن مل وإن صدا
شربنا ماء بغداد	فأئسانا كم جدا
فلا ترعوا لنا عهدا	فا نرعى لكم عهدا
ولا تشكوا لنا فقدا	فا نشكو لكم فقدا
كلانا واجد في لنا	س ممن مله ندا
قطنا جلكم عمدا	كما أعرضتمو عمدا

وقد تكون هنالك أسباب ومسببات قوية حملت الشاعر على قطع عهود رفاق الصبا عامداً . ولكن ألا يقارب الصواب من يفترض أن من هذه الأسباب والمسببات تقول أهل البصرة ، ورفاق البصرة ، وقدحهم في عرضه ؟ لقد شارى النواصي في بغداد

طائفة من الشعراء والناس . ولا مشاحة أنهم كانوا يتلقفون حديث أصله ونسبه وأنباء طفولته وشبابه من أهل البصرة المقيمين بها أو ببغداد . وكان من هذه الأحاديث والأنباء اجتماع الشاعر بوالبة . ويكفي أن يروى حديث هذا الاجتماع حتى يصدق كل ما يقال فيه ، فالنوامي متهتك في حياته ، جميل الصورة في صباه . وذكر له صاحب زهر الآداب في الجزء الأول من كتابه صورة رائعة هي أو في صورة ذكرت له في كتب الأدب فقد وصف عبد الله بن الجمار أبا نواس فقال : « كان أظرفهم منطقاً ، وأغزرهم أدبا ، وأقدرهم على الكلام ، وأسرعهم جواباً ، وأكثرهم حياء . وكان أبيض اللون ، جميل الوجه ، مليح النعمة والإشارة ، ملتف الأعضاء ، بين الطويل والقصير ، مسنون الوجه ، قائم الأنف ، حسن العينين والمضحك ، حلوا الصورة ، لطيف الكف والأطراف . وكان فصيح اللسان ، جيد البيان ، عذب الألفاظ ، حلوا الشئائل ، كثير النوادر . وأعلم الناس كيف تكلمت العرب ، راوية للأشعار راوية للأخبار » . ولقد كان والبة متهماً بدينه ، مغرقاً في فحشه وجوره . وقد رسم له أبو العتاهية في أهاجيه صورة خلقة ليست دون صورة خلقه . فهو خفيف الحاذ ، أبيض الخدين ،

أشقر في وجهه حمرة كحمرة الرئة . وقد ذكر أبو الفرج أن المهدي سأل عمار بن حمزة (والى الأهواز عام ١٥٨ هـ) عن أرق الناس شعراً . فقال هو والبة . ثم سأل عمار المهدي لم لا ينادمه ؟ ؟ فذكر له بيتين قالهما والبة فنجعل من روايتهما ، ما لهما أنه يدبُّ إلى كل جليس من جلسائه . وأردف المهدي قائلاً : « أو تريد أن نكون من جلسائه على هذا الشرط ؟ » فأية تهمة تلتصق بالنواصي إذا ما ذكر خبر مجالسته وصحبته له ، فلم يحجم أعداء أذكىاء خبثاء كأعداء النواصي ، عن أن يستغلوها إلى أبعد حدود الشناعة ؟ .

أتمَّ النواصي دراسته في البصرة ، وأقام عاماً بالبادية . ولما وثق من نفسه ومن أدبه ، عقد النية على الذهاب إلى بغداد والإقامة بها ، ليَجربُ حظه في دار الحظوظ . وما كان له أن يعدو هذا الحلم الباسم ، والأمنية المشرقة ، أن ينزح إلى بغداد حيث المال والجمال ، والحياة الموثقة السعيدة .

في دنيا الرشيد والأمين

نرح « أبو نواس » إلى بغداد ، ولم يكن له معدى عن النزوح إليها ، فقد كانت الحاضرة التي ينفق فيها الشعر وتجزل لأصحابه فيها الهبات . ولم تعين الرواية تاريخ هذا النزوح . وكل ما تذكره أنه كان في خلافة الرشيد وخلافة الرشيد فترة طويلة تمتد من عام سبعين ومائة إلى عام ثلاثة وتسعين ومائة . ففي أية سنة كان هذا النزوح ؟ ؟ وهل قدر على مدح الخليفة إثر مقدمه ؟ وبأى البيوتات كان أول اتصاله ؟ ؟ هذه أسئلة لا بُدَّ من الجواب عنها ، ولكن الجواب لا يستند إلى كتب التاريخ ولا إلى كتب الأدب ، وإنما سبيله الظنُّ والترجيح واستنطاق الحوادث وعسى أن نقدر .

قال شاعرنا الشعر — في البصرة — واشتهر بين أهلها به وبمجنونه . ومن الممكن أن يكون قد وصل شيء من هذا الشعر إلى بغداد — إلى ندوات الأدب الخاصة — ولكن شهرته لم تستفz إلا بعد أن أقام ببغداد ، واشتهرت طريقته في الشعر ، ومذهبه في الحياة . ولهذا فلا ندحة عن الترجيح بأنه لم يكن

يطمع في الوصول إلى خليفة في جلال الرشيد — يمدحه
وينصرف — إلا بعد أن يجيزه عليه ذو جاه قريب من الخليفة .
وإذا كان مدح الخليفة غير متيسر له ، فلينزل بآماله درجة
أو درجات . ولعل في تقربه من هؤلاء الأكابر والعظماء القريبين
من الخليفة ، والذين يهبون الهبات التي لا تقلُّ عن هباته ،
ما يعوضه عن هذه الأمانة التي يهفو إليها قلب كل شاعر يردُّ
بغداد — في ذلك الحين — وهي مدح الرشيد وإنشاده والأخذ من
نائله الغمر ، فهل عدا بآماله البرامكة ، وهم ألمع رجال ذلك العصر ،
وأسخاهم يداً ، وأكثرهم تقديراً للشعر ، وتقطناً لمواطن الجمال فيه ؟
لا نظن ! فما كان لشاعر أن يعدو عنهم برضاه . فقد مدحهم
النواصي وأطال . ولا شك أنه ضاع كثير من هذا المديح .
فهو يذكر غير مرة في معرض هجائه جعفرأ أنه قد مدحه كثيراً ،
ثم لا يذكر رواية شعره وجامعو ديوانه شيئاً من ذلك ، وأخذ من
عطاء البرامكة ولكنه كان عطاء مصر دأ لم ينقع غلته . فانقلب
عليهم يهجوهم الهجاء المقذع ، ويناصبهم العداء المؤلم .
وتذكر كتب الأدب حادثتين وقعتاه مع البرامكة ، إن لم
يكن فيهما كل السبب لهذه الجفوة بينه وبين القوم ، فقد زادت

في توسيعها ، وتمكين الشنان في القلوب . أولاها أن يحيي ابن خالد البرمكي — ومن الروايات ما تذكر أنه الفضل — وكل إلى أبان اللاحق تصنيف جوائز الشعراء الذين يمدحونه فصنّف جائزة لأبي نواس لم يرضها . هكذا ذكر صاحب الأغاني ، وزاد ابن عبد ربه في الجزء الثالث من العقد أن أباناً بعث للنواصي بدرهم زائف بعد أن أعطاه الفضل أموالاً ليفرقها على الشعراء كل على قدره . والثانية تشبه هذه ولعلها هي بعد تحريفها قليلاً رواها الجهمشيارى ، وهي « أن الفضل بن يحيى فوّض إلى أحمد بن سيار تقدير جوائز الشعراء بعد أن أذن لهم الرشيد بمدحه ، عند منصرفه من ولاية خراسان ، فمضى إلى أحمد بن سيار هذا جماعة من الشعراء والأدباء منهم أبان ، وأشجع السلمي ، وداود ابن رزين ، وغيرهم . وتحملوا عليه بغلام كان يحبه ليضع من شعر النواصي ولا يلحظه بنظرائه منهم . فلما عرض النواصي شعره عليه رمى به ، وقال هذا لا يستحق قائله درهمين . فهجاه النواصي واتصل الخبر بالفضل فأرضى النواصي وصرف الجرجاني » .

فهل كانت هاتان الحادستان سبباً لتباعده عن البرامكة . أو أن تباعده عنهم هو الذي حمل عليهما ؟؟ لعل الصواب

هو في مزج الحالتين . فتباعده عن البرامكة أغرى به شعراءهم ،
وتعرّم شعرائهم عليه باعد بينه وبينهم . ويلوح لي أن النواصي
رشح نفسه لأن يكون شاعر البرامكة . وليس لدى من دليل
أقدمه غير استكنائه الحالة النفسية التي يلحقها القارئ في هجائه
أباناً شاعرهم .

لزم أبان باب الفضل مدة طويلة وقدّم العريضة التي يطلب
بها « وظيفة شاعر الأمير الشاغرة » وكانت العريضة قصيدة منها .

أنا من بغية الأمير وكثر من كنوز الأمير ذو أرباح
كاتب حاسب خطيب أريب ناصح راجع على النصح

فعارضه النواصي هاجياً وكان مما قال :

أنت أولى بقلة الحظ مي يامسمى بالبلبل الصداح
قد رأوا منه حين غي لديهم أخرس الصوت غير ذى إفصاح
فيك ما يحمل الملوك على الحر ق ويزرى بالسيد الجحجاج

فما معنى قوله أنت أولى بقلة الحظ مني ؟ ؟ أليس من معناه
أن لو أنصف الزمن لكنت أنا لا أنت عند هؤلاء القوم الذين
لا تحيد الغناء لديهم .

ولم يكتفِ النواصي بهجاء أبان بل عمّ بالهجاء كل شعرائهم
فقد هجا الخاسر ، والرقاشي ، وأشجع السلمي . ولعله لم يعف

عن ابن مناذر وإن لم يُروَ هجاؤه فيه ، فقد كان ابن مناذر سىء
الرأى فيه لا يكاد يطيق سماع شعره .

ويقول ابن رشيق في كتابه العمدة الجزء الأول : « ومن
قبيح ما وقع لأبي نواس الذي أساء به أدبه وخالف فيه مذهبه
أن بعض بني برمك بنى داراً استفرغ فيها جهده وانتقل إليها ،
فصنع النواسى في ذلك أو قريباً منه قصيدة يمدحه فيها ويقول
في مطلعها :

أربع البلى إن الخشوع لباد عليك وإنى لم أخنك ودادى
وختمها أو كاد يختمها بقوله :

سلام على الدنيا إذا ما فقدتم بنى برمك من رائحين وغاد
فتطير منها البرمكى (وهو الفضل — لورود اسمه في هذه
القصيدة) ، واشتمأز حتى كلع ، وظهرت الوجهة عليه . ثم قال
له : « نعت إلينا أنفسنا يا أبا نواس » . فما كانت إلا مُديدة حتى
أوقع بهم الرشيد وصحت الطيرة وزعم قوم أن النواسى قصد
التشاؤم لشيء كان في نفسه من جعفر » .

يُنس من البرامكة ومن أن يكون شاعرهم ، فانصرف إلى بيت
ينافس البرامكة ، وينفس عليهم دولتهم ، ويراها فارسية وهو

بيت آل الربيع — وعميده الفضل بن الربيع الذي يتزعم الحزب
العربي . وإذا كان من المتعذر تعيين السنة التي انصرف إليه بها
فلا شك أنها تقع في أيام زهو الدولة البرمكية . يقول النواسي :

قولا لهرون إمام الهدى	عند احتفال المجلس الحاشد
نصيحة الفضل وإشفاقه	أخلى له وجهك من حاسد
بصادق الطاعة ديانها	وواحد الغائب والشاهد
أنت على ما بك من قدرة	فلست مثل الفضل بالواجد

وهي أبيات يُرجح أنها قيلت لما تولى الفضل بن الربيع
الحجبة . وقد وقع ذلك في عام ١٧٩ هـ بعد أن عزل الرشيد
محمد بن خالد البرمكي . ولا أظن أنها قيلت في غير هذا الظرف .
فالفضل تولى الحجبة في هذا العام وتولى الوزارة في عام ١٨٣ هـ
بعد أن نكب البرامكة ، وبعد أن أُخلى له وجه الحاسد .
والتهنئة بالوزارة لا تكون بمثل هذه الأبيات ، والسرور البادي
عليها يقسر الباحث على رد صلة الشاعر بهم إلى ما قبل هذا
التاريخ ، بل هو قبل هذا التاريخ باعتراف الشاعر نفسه
ولا تفسدوا بني ود عشرين حجة ولا تفسدوا ما كان منكم من الفضل

كتب إليهم بهذه القصيدة التي منها هذا البيت وهو بسجن
الأمير عام ١٩٥ للهجرة . فتكون معرفته إياهم وصلته بهم في عام

١٧٥ هـ . ولعلّ هذا هو تاريخ قدومه بغداد . مدح البرامكة فلما لم ينفق عندهم كما يشتهي ، تقرب من هذا البيت ، وهو بيت جاهٍ وغنى ومكانة مرموقة عند الناس . ولعميده بعض الحظوة لدى الخليفة . نقول هذا ولا نرجحه كل الترجيح ، وإنما هو رأى نستمسك به حتى يتبين خلافه

يقول ابن الطقطقي في كتابه الفخرى: « إن الفضل بن الربيع لما صارت إليه الوزارة تهوّس بالأدب وجمع إليه أهل العلم فحصل منه ما أراد في مدة يسيرة . وكان أبو نواس من شعرائه المنقطعين إليه . فهو شاعر آل الربيع وما دحهم قبل الوزارة ، والمنقطع إليهم بعدها . وجلة قصائده المبرزة في المديح هي فيهم .

آل الربيع فضلت	فضل الخيس على العشير
من قاس غيركم بكم	قاس الثماد إلى البحور
أين النجوم التالية	ت من الأكلة والبدور
أين القليل بنو القليل	ل من الكثير بنى الكثير
أدركم جزر الخلا	فة وهي شاسعة المصير
لولا مقامكم بها	هوت الرواسي من ثير

وفي تقرب النواصي من بيت الربيع بل في عدم ازوراره عنه ما يزيد الجفوة ويباعد كثيراً بينه وبين البرامكة . فقد

كان العداء مستحكما ألما بين هذين البيتين . وذكر صاحب كتاب الوزراء والكتاب « وعن عبدان بن سليمان أن من أسباب زوال دولة البرامكة تقصيرهم بالفضل بن الربيع »

ولا بأس هنا من كلمة في بيت الربيع الذي أصفاه النواصي وده ، وانقطع إلى مدحه . فهو بيت ليس بالعريق ، يبدأ مجده من الربيع أبي الفضل الذي استوزره المنصور لما رأى فيه من النبيل والجلال . وبقى وزيره طوال أيام المنصور ، ثم تولى حجاب المهدي ، ودس له الهادي السم فمات . أما ولده الفضل فقد تولى حجاب المنصور والهادي . ويذكرون أنه تولى حجاب المهدي ، فيكون تناوب العمل في هذه الوظيفة ووالده . وفي خلافة الرشيد تولى ديوان النفقات في عام ١٧٢ هـ ، ثم الحجابة ، ثم الوزارة . هذا هو تاريخ الأسرة « من وجهة رسمية » ، ومنزلتها الرفيعة عند الخلفاء . وقد استفادت من ذلك مالا كثيرا . فقد ذكروا أن الربيع تناول من يعقوب بن داود مائة ألف دينار ليعمل له عند الخليفة فيتحذه وزيراً ؛ وقد تم ذلك في خلافة المهدي ، هذه صفقة رواها التاريخ ومثلها لم يرو كثير ، أما تاريخ الأسرة فيما عدا الحجابة والوزارة فتاريخ الدهاء والفطنة والبصر بمواقع الأهواء ،

ومواطن رضى الساسة والأمراء ، وانطواء على الضغن ، وإجادة في الدس والوقيعه .

استطاع الربيع أن يوغر صدر المهدي على وزيره الداهية معاوية بن يسار . وما زال يلح عليه ويرأوحو ويفاديه بالنيمة حتى طلب المهدي إلى وزيره أن يقتل ابنه بيده تقرباً إلى الله بعد أن استطاع الربيع إقناعه بزندقته . لم يقتل الوالد ولده ، ولكن الخليفة أمر غيره بقتله . ولم يكتف الربيع بهذا فما زال بالخليفة حتى أمر وزيره أن يقيم بيته ولا يأتيه .

قال صاحب الفخرى : « دخل معاوية يوماً على المهدي وهو وزيره يعرض عليه كتباً وردت من بعض الأطراف . فطلب من المهدي إخلاء المجلس ، فخرج كل من به إلا الربيع . فلم يعرض أبو عبيد الله شيئاً من تلك الكتب ، وطلب أن يخرج الربيع . فقال له المهدي : « ياربيع اخرج » ، فتنحى قليلاً . فقال المهدي : « ألم آمرك بالخروج ؟ » قال : « يا أمير كيف أخرج وأنت وحدك ، وعندك رجل من أهل الشام اسمه معاوية وقد قتلت بالأمس ولده ، وأوغرت صدره ، فكيف أدعك معه على هذه الحال وأخرج ؟ » فثبت هذا المعنى في نفس المهدي ، إلا أنه قال :

« ياربيع إنى أثق بأبى عبيد الله . أعرض يامعاوية ما تريد فليس دون الربيع سر » وأدل من هذا على خلق الربيع و بصره بمداواة الرجال ، ومسايرة الزمن ، ثم انطواء نفسه على الضغينة والحقد أن نعلم أسباب هذه الخصومة . فقد روى صاحب الفخرى — أيضاً — أنه لما توفى المنصور وأخذ الربيع البيعة للمهدى ، قدم من الحجاز وحضر من ساعة وصوله إلى باب الوزير المذكور فقال له ابنه الفضل : أقبل منزل الخليفة ومنزلنا ؟؟ فقال : « نعم يا بنى هو صاحب الرجل ، والغالب على أمره ؛ فلما وصل وقف ساعة حتى خرج الحاجب . فلما دخل لم يقم له ثم سأله عن سيره وحاله ، فأخبره ، وشرع الربيع يحدثه بما جرى فى مكة حتى موت المنصور ، واجتهاده فى أخذ البيعة للمهدى . فسكته وقال : « قد بلغنى الخبر فلا حاجة إلى إعادته » فاغتاز الربيع ولكنه آثر السكوت ، ثم قام وخرج وقال لابنه : « على كذا وكذا إن لم أبذل مالى وجاهى فى مكروهه وإزالة نعمته » وما زال حتى فعل .

وكأنما انحدرت هذه الفطنة والدهاء والميل إلى الوقيعه والمعرفة بمواقع الدسيسة إلى ابنه الفضل فورثها فى جملة ما ورث عن أبيه . فهما اختلفت الأسباب وتعددت الأقوال فى العوامل التى دعت

إلى نكبة البرامكة من إدلال على الخليفة ، إلى العمل بغير إذنه وما لا يوافق هواه ، إلى حكاية العباسية إلى حسد الخليفة ، إلى غير هذه ، فلا مرء في أن للفضل يداً في هذه النكبة . فقد كانت له عيون عليهم وهو الذي أنمى إلى الرشيد خبر إطلاق جعفر البرمكي يحيى بن عبد الله بن الحسن الثائر الطالبي . وقد قيل إن هذا هو السبب الذي قتل من أجله جعفر ؛ وكان بينه وبينهم ملاحاة في مجلس الرشيد

تلك هي الأسرة التي كاد ينقطع إليها النواصي في بغداد وقد أكثر من مدحها ، والتي لا ريب في أنه استفاد من معروفها وخيرها الشيء الكثير فهل قدر الفضل على إيصاله إلى الرشيد ؟ لا مُشاحة في أنه لم تكن له مثل هذه القدرة في زمن البرامكة ، وإذا كانت فأحر بها أن تكون بعد توليه الوزارة .

ذكر الطبري في تاريخه أن الرشيد جدد البيعة لولديه المأمون والقاسم بعد أخيهما الأمين ، وسمى القاسم بالمؤتمن عام ١٨٩ وذكر أن النواصي قال في ذلك قصيدته التي منها :

تبارك من ساس الأمور بعلمه	وفضل هروناً على الخلفاء
نميش بخير ما انطوينا على التقى	وما ساس دنيانا أبو الأنساء

وحادثة تجديد البيعة تأتي بعد وزارة الفضل بسنتين ، فهل مدح الرشيد قبل ذلك ؟ من المرجح أن تكون قصيدته التي يقول فيها :

يلقى جميع الأمر وهو مقسم	بين الناسك والعدو الموفق
حتى إذا أمضى عزيمة رآيه	أخذت بسمع عدوه والمنطق
إني حلفت عليك جهد ألية	قسماً بكل مقصر ومخلق
لقد اتقيت الله حق تقاته	وجهدت نفسك فوق جهد المتقي
وأخفت أهل الشرك حتى إنه	لتخافك النطف التي لم تخلق

قيلت بعد نصره الرشيد على نقفور في عام ١٨٧ هـ فقد كان هذا الانتصار موسماً للشعر والشعراء تباروا في مدح الرشيد بالقصائد الجياد . مدحه أبو العتاهية بقصيدتين ذكرهما الطبري في حوادث هذا العام ، ومدحه محمد التيمي بقصيدة وأشجع السلمي بالقصيدة التي ذكر منها صاحب الأغاني هذا البيت :

لا تبعد الأيام إذ ورق الصبا خضل وإذ غص الشباب نضير

وللنواصي قصيدة ثالثة في مدح الرشيد وهي التي يقول فيها :

في كل عام غزوة ووفادة تنبت بين نواها الأقران

ومن النظر في أبياتها يرجح أنها قيلت بمناسبة القلنسوة التي لبسها الرشيد وكتب عليها « غاز حاج » . وهي بعد تاريخ

القصيدة الثانية بثلاث سنوات ، فتكون قصيدة عام ١٨٧ للهجرة هي أول قصيدة قالها في مدح الرشيد ؛ وهو العام الذي تولى فيه الفضل الوزارة ؛ ولعله لهذا هو العام الذي طمع فيه بالوصول إلى سدته . فهل وصل إليها ؟؟ وكيف كان موقف الخليفة منه وما مقدار جائزته ؟؟ الأرجح أن النواصي وصل إلى الرشيد ، ولا شيء يمنع ذلك .

كان الرشيد يسمع شعر النواصي ويتذوقه ويعجب ببعضه . وما كان ليصح غير ذلك من خليفة كهرون ، له ذوقه الرفيع في الشعر ، وتقدير شعراء عصره الذين كاد النواصي يتغلب عليهم . روى أبو الفرج في أغانيه « عن الفضل بن اليزيدي قال : حدثنا إسحق الموصلي قال دخلت على الرشيد يوماً وهو يخاطب جعفر بن يحيى بشيء لم أسمع ابتداءه وقد علا صوته . فلما رأيته مقبلاً قال لجعفر : أترضى بإسحق ؟ قال جعفر : والله ما في علمه مطعن إذا أنصف . فقال : أي شيء تروى للشعراء المحدثين في الحضر ؟ أنشدني أفضل ما عندك ، وأشدّه تقدماً . فعلمت أنهما كانا يتماريان في تقديم أبي نواس فعدلت عنه إلى غيره لئلا أخالف أحدهما فقلت : لقد أحسن أشجع بقوله :

ولقد طعنت الليل في أعجازه بالكأس بين غطارف كالأفحيم
يتأيلون على النعيم كأنهم قصب من الهندي لم تشلم -
فقال لي الرشيد : قد عرفت تعصبك على أبي نواس وإنك
عدلت عنه متعمداً . ولقد أحسن أشجع ولكنه لا يقول أبداً مثل
قول النواصي :

يا شقيق النفس من حكم نمت عن لبلى . ولم أتم^(١)
فقلت له : ما علمت ما كنتما فيه يا أمير المؤمنين ، وإنما
أنشدت ما حضرني .

فقال : حسبك قد سمعت الجواب . . »

وهذه الحكاية تدلُّ على شيئين ، أولهما أن الرشيد كان يستطيع
شعر النواصي ويفضله على غيره ، ويرى أنه صاحب طريقة في
وصف الخمر لا تعلو عليها طريقة ؛ والثاني وهو أكثر من هذا
أهمية هو ميل جعفر عنه ، وتعصبه عليه . فلا جرم أن الرشيد كان
يمار به وقد علا صوته — كما ذكر إسحق — ليقنعه بخطأ رأيه
وذكر ابن منظور في كتابه بعد أن أورد نوادره مع الرشيد
واتصاله به ما يلي « وقال بعض المترجمين ممن يحيط علماً بأحوال

(١) ترجع رواية ابن قتيبة في أن هذه القصيدة لوالبة وقد ذكر
أبو الفرج أيضاً — في غير هذا الموضع — أنها لوالبة

أبي نواس إن هذه الحكايات والنوادر عنه وعن الرشيد موضوعات وإن أبا نواس ما دخل على الرشيد قط ، ولا رآه ، وإنما دخل على محمد الأمين وما ملك النواصي عشرين ألف نواة ، فكيف بعشرين ألف درهم » أما أن هذه النوادر موضوعة فما لا شك فيه . وأما أنه لم يدخل على الرشيد ولم يره ، ففيه كل الشك ، ولا يثبت عند تحقيق . فالرشيد البصير بمنزلة النواصي الأدبية وأنه إن لم يكن أعظم شعراء عصره فهو أوسعهم شهرة ، لا يغتفر له إن أغفل مدحه ، ولم يأت إلى بابيه مع الشعراء ، يميز هذا المنطق ويميز أكثر منه قليلاً . ولكنه لا يميز بحال أن يقبله شاعراً له ، متصلاً به . فقد اشتهر النواصي واشتهرت معه طريقته الفاجرة بالحياة ، وتغنت بغداد بها .

عند الخصيب

من الرواة من يذكر أن الخصيب استزاره لأنه كان يعرفه ببغداد . وليس ما يمنع ذلك . فولاية الخصيب في زمن وزارة الفضل بن الربيع ويذكر ابن منظور أن النواصي دخل عليه في زى الشُّطار ، وأن الخصيب ازدراه لذلك . وهي رواية ساقطة .

فما كان للنواسي أن يفعلها وقد أمضى أيامه ببغداد يتقلب في
 غدواته بين دور البرامكة ، وآل الربيع ، وقصور الأمراء ،
 مثل أبي عيسى والعباس وغيرها . ويعرف ما يجب عليه أن يفعل
 في مجالسهم . ولم يتعلقوا به بغلطةٍ مثل هذه . ولا يجوز أن يكون
 استخف بالخصيب ، وقد ارتحل من بغداد وبينها وبين مصر
 شقةٌ بالغة . وقد ذكر النواسي الطريق التي سلكها إلى مصر فمن
 « عقر فوت » وهي قرية على نهر دجيل ، تبعد عن بغداد ستة
 فراسخ ، إلى « عين أباغ » وهو مكان وراء الأنبار . ثم اتبع
 طريق الفرات حتى النقيب ، فتدمر ، فالشام . ومنها إلى الجولان
 فبيسان ، فالرملة . ومن هذه إلى غزة هاشم ، فالعريش ،
 فقسطاط مصر ، وذلك تفسير قوله ^(١) :

رحلنا بنا من «عقر فوت» وقد بدا	من الصبح مفتوح الأديم شهير
فما نجدت بالماء حتى رأيتها	مع الشمس في عيني أباغ تنور
وغمرن من ماء النقيب ^(٢) بشربة	وقد حان من ديك الصباح زمير
ووافين إشراقاً كئناس تدمر	وهن إلى وعن المدخن صور
يأمن أهل القوطيين كأنما	لها عند أهل القوطيين ثؤور

(١) رجعا لتحقيق هذه الأسماء إلى معجم البلدان

(٢) ذكر صاحب معجم البلدان أن النقيب موضع بين تبوك والشام وليس
 هذا نقيب النواسي

وأصبحن بالجولان يرضغن صخرها ولم يبق من أجراحهن شطور
وقاسين ليلا دون ييسان لم يكد سنا صبحه لناظرين ينير
وأصبحن قد فوزن من نهر فطرس وهن عن البيت المقدس زور
طوالب بالركبان غزة هاشم وفي القرما من حاجهن شقور
ولما أتت فسطاط مصر أجارها على ركبها أن لا تزال مجير
ومن الجولان إلى ييسان أية طريقٍ سلك ؟ فلا بُدَّ له من
المرور بوادي الأردن . فهو أقرب طريق من الجولان إلى ييسان .
ومن يدرينا ! فلعلَّ جبال عجلون المُطلة على هذا الوادي الحصيب
شاقته بمنظرها . والظاهر أنها لم تكن مشهورة بشجرة الكرمه
شهرتها في زمن اسرائيل ، أو في الزمن الحاضر . فلم تستوقف
نظره ليتغنى ويصف . ومدينة ييسان نفسها كانت من مدن
الأردن في ذلك الحين . وقد طالت إقامته بمصر — بعض
الشيء — فهو يحنُّ إلى بغداد .

ليس لي مسعد بمصر على الشوق إلى أوجه هناك حسان
إذ لباب الأمير صدر نهاري ورواحي إلى بيوت الفيان
وتختلف الرواية مرة ثانية في المنزلة التي وصل إليها النواصي
عند الحصيب . فمنها ما تذكر أنه نادمه ؛ على أن الواضح أنه
استطاب مجلس النواصي ومدحه ؛ بدليل أن هذه الزورة
طالت ولو بعض الشيء ، كما أسلفنا . وما كان له أن يفرط في مثله

وهو يعرف قوته الأدبية في العاصمة التي يأنمر بأمر رجالاتها .
وهو يعرف - أيضاً - صلته بوزير الدولة الفضل . ولا يعنى
ذلك أنه كان يتحسب منه من ناحية سياسية ، ولكنها عوامل
تزيد قيمته ولندع حديث الرغبة والرغبة ، فالمدح البارع ،
والذكر الحسن ، أشياء تشتاقيها الأنفس ، ولا سيما أنفس الولاة
والحكام . ومن هو الخصيب لولا النواسى ؟؟ هو وال للرشيد
على مصر ، وكم للرشيد من وال عليها ، فمن يذكركم ؟ لقد مررت
على أسمائهم كلهم ، وها أنا كاد أنساها ، ولما أفرغ من البحث
الذى مررت بأسمائهم بسببه . أما الخصيب فهيئات أن ينساه
قارئ أدب . إنه إن هم ذكرته إياه القصيدة التى منها :

إذا لم تزر أرض الخصيب ركابنا فأى فتى بعد الخصيب نزور
لقد ابتنى فى مصر بلدة « منية » ، وما تعدل فى عالم الشهرة
والخلود أية بلدة هى بجانب قصيدة النواسى أو قصائده فيه .
ولم تستطع مصر فى ذلك الحين أن تشبع رغائب الشاعر
المفتون بالمجون ، الشره للجمال . فقفل راجعاً إلى البلد الزاخر به ،
والذى يعجُّ بكل ما هو جميل . عاد ليواصل سيرته ، ويقسم
ساعات يومه . فصدر النهار لباب الأمير ، وعلاه الفضل بن الربيع ،

فقد كان يلقب الوزير بذلك ، وفي الليل يروح على بيوت القيان .
 عاد لينقطع إلى الفضل وليشرك معه بعض الحين أمراء منهم
 العباس الذي مررنا بذكره ، ويهمننا مما قاله فيه بعد عودته من
 مصر قصيدته التي منها :

حلفت يميناً برة لا يشوبها	فجار وما دهري يمين فجار
لقد قوم العباس للناس حجبهم	وساس برهبانية ووفار
وأطعم حتى ما بمكة آكل	وأعطى عطايا لم تكن بضمار

هذه الأبيات تعيننا على تعيين تاريخ نحن حريصون على
 تحقيقه . فقد ذكر المسعودي أن العباس بن عبيد الله بن أبي جعفر
 بن المنصور حج في الناس عام ١٩٢ هـ . ونرجح أن أبا نواس
 يشير إلى حجه في هذه السنة . ولم الترجيح وإنما هو التأكيـد .
 فقد رجعنا إلى الطبري في أسماء الذين حجوا في الناس في خلافة
 الرشيد فلم يكن من بينهم العباس إلا في هذه السنة . وكان أبوه
 أمير الحج في عام ١٨٨ هـ ، وتحقيق هذا يفيدنا أكبر فائدة
 في تأريخ سجن الشاعر في زمن الرشيد كما سيرى القارئ .

انتهت فترة خلافة الرشيد ، وكان حظ النواصي منها الاتصال
 الوثيق بالفضل وأبنائه ، ومن ولاته بالخصيب . وليس هو

بالاتصال ، وإنما هو انتجاع للرغد وعودة ، واتصال قليل . بطائفة
من الأمراء ، وقد غلبه حسين الضحك الشاعر على صالح وأبي عيسى
ولدى الرشيد فراح يسعى للاتصال بولي العهد الأمين .

مع الأمين

مدح النواسى الأمين غير مرة وهو ولى عهد :

مد الإله عليه ظل مملكة يلتقى القصى بها والأقرب الدانى
إن يمسك القطر لا تمسك واهبه ولى عهد يدها تتهلان

ولكنّ هذا المديح لا يعين مقدار هذه الصلة . فقد مدحه كثير
غيره من الشعراء « حتى شكّا الرشيد إلى على بن العباس أن
الشعراء قد أكثروا من ذلك لمكانه منه ومن أم جعفر وكادوا
ينسون المأمون » . ولا يعين هذه الصلة أيضاً إطلاقه إياه من
سجن أبيه . فقد تم ذلك بوساطة الفضل وشفاعته المقبولة عنده .
ولعلّ فيما ذكره ابن قتيبة فى كتابه « الشعر والشعراء »
ما يعينها ، ويبين درجتها ، أكثر من ذلك .

قال : « إن الرشيد أمر إبراهيم بن عثمان بن نهيك أن لا يأوى
النواسى إلى عسكره من أيلته . فقال الأمين لابراهيم : والله لئن

حصصت منه شعرة لأقتلنك . فأقام عند ابراهيم حتى مات هرون وأخرجه محمد الأمين . » والسبب الذي أمر الرشيد بسجن الشاعر من أجله معروف وإن لم يذكره ابن قتيبة ، وما هو إلا القصيدة التي هاجبها مضر ، والكاتب يروى عن أناس عاصروا الشاعر فهو ثقة . والحكاية دليل على بلوغه لدى الأمين (ولي العهد) منزلة رفيعة يتهدد من أجلها رئيس شرطة أبيه بالقتل إن جرى أو جرؤ عليه بمكره . بيد أن هذه المنزلة ما كان لها أن تتحول — في زمن الرشيد — إلى أكثر من علاقة شاعر يمدح ولي عهد المسلمين لرفده وعطائه . وبعض الروايات تزيد في هذه العلاقة حتى تجعل من الشاعر — ابن المديني — مرة ثانية . لا في قصر الأمين ولي العهد ، ولكن في قصر الأمين الخليفة .

طمع النواصي في أن يكون شاعر الأمين — حينما أصبح خليفة — وأن يختص به ويصل منه إلى مرتبة النديم ، وكل الظروف تساعده على ذلك .

فإن لم يقدر الفضل بن الربيع على الوصول بشاعره إلى سدة الرشيد ، فهو قادر على الوصول به إلى مجلس هو الأمين ،

فقد ذكره له وأطراه . ولما جاء الشاعر ليقابل الخليفة ، قال
 ابن جرير الطبرى : « وقال له الأمين كن من ندمائى »
 بلغ أمله ، وأدرك أمانيه ، ووصل إلى المنزلة التى تتطال إليها
 الأعناق ، وتتقطع دونها قلوب الشعراء . شاعر الخليفة ونديمه !
 لقد كاد يحزن بهذه الخطوة « رضينا بالأمين عن الزمان » وأى
 رضى ! ليس بعده ولا قبله من رضى يدانيه . صار نديمه وصار
 شاعره . فهو يقبل عليه بالمدح مسرعاً ، لا يتأنق فيه كما اعتاد .
 وأكثره من الشعر الذى ترغمه على قوله الحوادث . فإذا اتخذ
 الخليفة سفينة على هيئة الأسد ، أو الدلفين ، أو الحية ، أو العقاب
 سارع إلى أن يقول فى هذا شعراً ، إن لم يرض رجال الأدب ،
 فقد أرضى به خليفته وحسبه هذا :

قد ركب الدلفين بدر الدجى	مقتحماً للماء قد لججا
فأشرقت دجلة من نوره	وأسفر الشيطان وابتهجا
عجب الناس إذ رأوك على صو	رة ليث يمر مر السحاب
سبحوا إذ رأوك سرت عليه	كيف لو أبصروك فوق العقاب

وهو من فرط جنونه بهذه المنزلة يسرف فى مدح الأمين ،
 ويبالغ كثيراً . وقد رَووا له أبياتاً فى هذا المعرض أوشكت أن

ترديه في هاوية من الإلحاد ، وما زال نديم الخليفة وشاعره .
فمن تحصيل الحاصل القول إنه اكتسب جاهاً ضخماً ، ومكانة
مرموقة عند الناس . فقد جاء في الأغاني وصف لهذه المنزلة فإن
لم يذكر أن هذه الحادثة وقعت للنواصي في زمن الأمين ، فلا
سبيل إلى حملها على غير عهد الأمين : « عن الحسن بن علي
يأسناد عن هرون بن سعدان قال : كنتُ مع أبي نواس قريباً
من دور بني نيبخت بنهر طابق ، وعنده جماعة ، فجعل يمر به
القواد والكتاب وبنو هاشم فيسلون عليه وهو ممدود الرجل
لا يتحرك لأحدٍ منهم حتى مرَّ به أبو العتاهية
فوقف له » . ولكن كم دامت عليه هذه النعمة ؟ أقصرت مدتها
أم طالت ؟ الأرجح أنها لم تدم أكثر من سنتين . فقد انبعثت
الفتنة بين الأخوين ، وسُيِّرَت الجيوش لتقطيع الأرحام ، وتواترت
الروايات على أنه ترامي للأمين الكلمة التي فاه بها الحسن بن سهل
في خراسان ، وهي : كيف لا يحل قتال الأمين وشاعره ونديمه يقول :
ألا فاستقي خراً وقل لي هي الحمر ولا تسقي سراً إذا أمكن الجهر

فغضب على شاعره ، واتهمه بالزندقة ، ووجد من بني هاشم
من يغريه عليه ، فزجَّ به في السجن ، ثم أطلقه . ولكنها الفتنة ،

صيرت أمر الأمين إلى انتكاس فجيوشه تهزم وتحطم ، وجنده يشغب به .

يذكر ابن قتيبة أن الأمين وصله بعشرة آلاف درهم حينما بعثه من قبره ، كما يقول النواسي في نعت سجنه . وهي عطية ليست بالبالغة ، بل إنها دون ما اعتاد أن يعطى . فهل عاد إلى مدحه ومنادمته بعد السجن ؟؟ يتفرد الطبري في تاريخه بهذه الرواية وهي « ذكر يعقوب بن اسحق عمن حدثه عن كوثر خادم الخلع أن محمداً أرق ذات ليلة وهو في حربه مع طاهر ، فطلب من يسامره فلم يقرب إليه أحدٌ من حاشيته . فدعا حاجبه وقال له : ويلك قد خطرت بقلبي خطرات فأحضرنى شاعراً ظريفاً أقطع به بقية ليلتي . فخرج الحاجب فاعتمد أقرب من بحضرته فوجد أبا نواس ، فقال له : أجب أمير المؤمنين . فقال له : لعلك أردت غيري . قال : لم أرد أحداً سواك . فأتاه به فقال : من أنت ؟ قال : خدامك الحسن بن هانيء ، وطليلتك بالأمس . قال : لا ترع . عرضت بقلبي أمثالاً أحببت أن تجعلها في شعر ، فإن فعلت ذلك أجزتُ حكمك فيما تطلبه . فقال : وما هي يا أمير المؤمنين ؟ قال : قولم « عفا الله عما سلف » و « بثس والله ماجري فرسى » و « اكسرى

عوداً على أنفك » و « تمنعني أشهى لك » قال فقال أبو نواس :
حكى أربع وصائف مقدودات . فأمر باحضارهن فقال :

فقدت طول اعتلاك	وما أرى في مطالع
لقد أردت جفائي	وقد أردت وصالك
ماذا أردت بهذا	تمنعني أشهى لك

وأخذ بيد وصيفة وعزلها وقال :

قد صحت الإيمان من حلفك	وصحت حتى مت من خلفك
بالله سقى فاحش مرة	ثم اكسرى عوداً على أنفك

ثم عزل الثانية وقال :

فديتك ماذا الصلف	وشتك أهل الشرف
صلى عاشقاً مدتقاً	قد اعتب مما اقترف
ولا تذكرى ما مضى	عفا الله عما سلف

ثم عزل الثالثة وقال :

وباعثات إلى في الغلس	أن اثنتا واحترس من العسس
حتى إذا نوم العداة ولم	أخش رقيباً ولا سنا قبس
ركبت مهرى وقد طربت إلى	حور حسان نواعم نفس
فجئت والصبح قد نهضن له	فبئس والله ما جرى فرسى

فقال له : خذهن لا بارك الله لك فيهن » . وليس في هذه

الرواية ما يمنع من قبولها وتصديقها . فأربع جوارٍ لا قيمة لهن ،
يمنح مثلهن حاجب الخليفة ووزيره . وأبو نواس وإن لم يكن

يجرى مع أبي العتاهية في البديهة والارتجال ، إلا أنه قادرٌ عليه .
وله مع رفاقه الشعراء مساجلات ومطارحات هي عفو الساعة
وأجود من الأبيات المروية . والأمثال التي أراد الخليفة نظمها
شعراً تجرى مع شبه الحال التي هو فيها ، فهو يرى أن أمره صائرٌ
إلى الزوال . فلعله فكر في ذلك فلام جدّه العائر وتمثل « بئس
والله ما جرى فرسى » . ثم تمنى أن يعود حاله وحال أخيه إلى
ما كان عليه و « عفا الله عما سلف » . ثم إن الثلثين الآخرين
لا يبعدان عن وصف ما هم فيه فهماني - حيث الخيبة والإخفاق ...
بقي شيء آخر دخل الحكاية فأضعفها ، وهو سؤال الأمين
لأبي نواس من أنت ؟ . إن هذا السؤال لا يمكن أن يحمل على
محل الاستفهام ، إلا إذا افترضنا أن الخليفة لم يكن يسمر
في قصره ، بل في إحدى شرفاته . وفيما عدا هذا فهو استخفافٌ
وإنكار . أيسأل الأمين النواصي من أنت ، ويحييه بالحسن
ابن هانيء ، وأين المدح العالي ، وأيام الندامة ولياليها ، وأحاديث
السمر الفك ؟ وإذا جوزنا هذا الافتراض وهو أن الخليفة كان
يسمر في شرفة ولم يتبينه ، أو استخف به ، وأخذنا بهذه الحكاية
وهي مقبولة رغم نقطة الضعف فيها ، بقي جواب الخليفة وهو

« لا ترع » — وهى كلمة تدلُّ على أن النواسى لا يزال يتحسب من الخليفة ، وأن الخليفة يقدر هذا . وهى حالٌ لا تعين على أن يكون النواسى قد عاد إلى موضع حب الخليفة وإيثاره ، وسابق مكانته عنده . ومن العبث القول بعد هذا إنه لم يعد إلى منادمته . فقد أخذ يشتدُّ فى نهيه عن شرب الخمر . وأبو نواس يقول فى هذا شعراً ويذيعه . ولعلَّ الخليفة يؤثر هذا الشعر وإذاعته ، ليسمع به الناس ولتنتقله الركبان إلى فارس فيكون فيه الرد الكافى على كلمة الحسن بن سهل :

أيها الرائحان باللوم لوما	لا أذوق للدمام إلا شحما
نالى باللام فيها إمام	لا أرى لى خلافه مستقما
فاصرفاها إلى سوى فانى	لست إلا على الحديث نديما

إلى غير ذلك من القصائد التى تصف نهى الأمين له عن الشراب ، وتأوّهه على ذلك ، وإطاعته له فيه .

ومما يزيد فى هذا الترجيح ، وهو أن النواسى لم يعد إلى سابق مكانته عند الخليفة ، أننا نرى فى هذه الفترة من حياة الأمين غلبة شاعر آخر عليه ، هو الحسين الخليلع الذى أخلص له وتقانى فى حبه ،

حتى موته ، وأكثر من هجاء المأمون حتى أشفق عليه
أبو العتاهية فنهأ

ولعل في حديث غلبة هذا الشاعر على الأمين ، وسجن
الخليفة للنواسي ، ما يفسر لنا الأبيات التي تقع عليها فيما روى
الأدب لأبي نواس وفيها تعريض بمحمد الأمين ، حتى قال المأمون
إني لأنوقع أن يهرب إلينا .

غنى بين الحقيقة والخيال

تقول الأساطير الموروثة وليالي « ألف ليلة وليلة » إن النواسي
شاعر الخليفتين الرشيد والأمين ، وإنهما استطابا مجلسه وفكاهته
فهو يدخل متى شاء وينصرف متى أراد .

ويقول التاريخ إن هذين الملكين — الرشيد والأمين —
يعطيان بغير حساب من هذه الأموال التي تتدفق عليهما بغير
حساب . فمن لحظه برضى فقد أغنياه . فهو في نعم وآلاء ، له
الجواري والعلماء ، وله إن أعقب الرضى رضى القصور ذات
الرياش ، والضياع العامرة الفساح .

وتقول أساطير « ألف ليلة وليلة » وكأنها « تتمنطق » : وما زال

النواسى النديم المصطفى ، والمهرج الذى يخف على قلب الملكين ،
 فله الحظ الأوفى من هذه النعم ، وأيسر أعطياته ما شاءت ساعة
 الرضى ، من ذهب وجوهر . ويأتى التاريخ ليصحح الأسطورة
 فى موضع ، ويقرّها فى مواضع . فالتحليفتان كلاهما أخرق المنحة
 مسرف فى العطية ، ومنها الذهب والجوهر . ولكن النواسى لم
 يكن بالموضع الذى وصفت من الرشيد . نادم الأمين مُدبرة
 كانت فى أخريات أيامه . ولم يكن يحظه منه ما أمل وهو
 القائل له :

أقصيته وليسيت ولعمدك بك غير ناس
 قد كنت آمل غير ذا لو كنت تنصف فى القياس

فصحى يا أسطورة هذا الموضع من الكتاب . فتقول
 الأسطورة : ولكنه أمتع ما فى الكتاب . . فامض يا تاريخ
 لوجهتك وسأمضى أنا ، وسترى أينما الأقوى . إن خفاثتك تعيش
 فى أذهان بعض الناس . أما أوهاى فى أذهان كل الناس . ولئن
 كانت حكاياتك فى أذهان هذه الفئة من أصحابك عرضة للشك ،
 ومظنة للارتياب ، إن أوهاى فى أذهان أصحابى فوق الشك
 وفوق كل ارتياب .

فإذا ذكر النواسى ذكر الرشيد و ذكر الأمين ، و ذكر الثراء
والنعم الموصولة السابقة ، فهل هذا هو الصحيح ؟

قدم النواسى بغداد ، لا يملك من الأداة التى تعين على
العيش فى العاصمة ذات التكاليف إلا الشعر ، وهو نعم الأداة
— فى ذلك العصر — يستطيع صاحبها أن يعيش بها ويدرك
الجاه والثراء إن و اتاه الحظ ، وأسعفته المقادير ، وكأنه وهو
يجتأب ما بين البصرة و بغداد يتغنى بأبياته ، أو يزور معناها فى
خلده إن لم يك نظمها بعد .

سأبنى الغنى إما بجليس خليفة	يقوم سواء أو بحيف سبيل
بكل فتى لا يستطار جناحه	إذا نوه الجمعان باسم قتيل
نخمس مال الله من كل فاجر	أخى بطنة للطيبات أكل
ألم تر أن المال عون على التقى	وليس جواد معدم كبخيل

وأسعفه الدهر ، فمدح خليفة هو الرشيد ، وجالس خليفة هو
الأمين . فهل أدرك المال الذى يقول (إنه عون على التقى)
لو كان التقى يدرك به فحسب لكان من أتقى خلق الله . فقد
أخذ من الذين مدحهم ما فيه الكفاية وفوق الكفاية . وعاش
دهره هذه العيشة المرفهة الموسعة مع أن ما أخذه من هذا المال

هو دون قدره — فى عالم الشعر — ودون حظ رفاقه من الشعراء
ومن يعلو عليهم درجات .

فقد ذكرت كتب الأدب أن ساءاً الخاسر خلف ثروة طائلة
تقدر بخمسين ألف دينار عدا الضياع . ومثله بل يزيد عليه مروان
ابن أبى حفصة الذى تناول من يد الرشيد على قصيدته التى
يقول فيها :

وشدت بهرون الثور فأحكمت به من أمور المسلمين المرائر
أبوك ولى المصطفى دون هاشم وإن رغمت من حاسديك المناخر

جائزة قدرها خمسة آلاف دينار ، وخلعة ، وعشرة من الرقيق
الرومى ، وبردوناً من خاصة مركبه^(١)

وذكرت أن أبا ناساً اللاحق أخذ منه جائزة قدرها عشرون ألف
درهم على قصيدته التى منها :

نشدت بحق الله من كان مسلماً أعم بما قد قلته العجم والعرب
أعم رسول الله أقرب زلفة لديه أم ابن العم فى رتبة النسب^(٢)

ولا يقل عن هؤلاء بل يزيد عليهم حظ العتاهى . وإذا
كانت قصيدتا ابن أبى حفصة وأبان قيلتا لغرض سياسى ،

(١) الطبرى الجزء السادس صفحة ٥٢

(٢) الأغاني جزء ٢٠ صفحة ٧٥

فتكافأت جوائزها مع مقدار التشيع للبيت العباسي ، والنفاق
لرجاله بالزراية على البيت العلوي ، فقد ذكرت كتب الأدب أن
غيرها أخذ من الرشيد جوائز لا تقل عن هذه . ذكروا أن
الشاعر العماني أخذ من الرشيد جائزة قدرها ثلاثون ألف دينار^(١)
على قصيدته التي وصف بها مناعم بغداد وسلك فيها جانب الفكاهة
حيث يقول :

ثم أنوم بالدجاج الدجج بين شواء وقديد منضج

فماذا أخذ النواسي من الرشيد ، وقد مدحه في ثلاث قصائد
أو أكثر؟؟ لم تذكر كتب الأدب شيئاً من ذلك . ولا مرية
في أنه أخذ — لو أنه وصل إليه — فما كان لشاعر أن ينصرف
من لدن الخليفة الرشيد ، بدون هبة ؛ ولا مرية أيضاً في أنه إذا
وصل إليه وأخذ شيئاً فقد كانت الهبة دون تلك ، لأنها لو كانت
وافرة لذكرتها الروايات . على أن عطايا الخليفة ليست هي المورد
الرئيسي للشعراء ؛ فهناك الأمراء والوزراء . فما هو حظ
النواسي منهم ؟

هناك البرامكة وأعطياتهم البالغة . جاءهم النواسي وهم كما

يصف في مدح الفضل بن يحيى (ترى الناس أفواجا إلى باب داره)

وهو وإن ظل يقبل ويدبر مع هذه الأفواج الساعية إلى
رفدهم ، فلم يكن له منهم كبير حظ . وكان أشد ما يكون نقمة
على جعفر ، صاحب الأمر والنهى . والناظر في هجاء النواسى
لا يشك في أنه كان مجرماً ولا يكافئه على مدحه . وليس أدل
على ذلك من هذه الأبيات التى نروىها . وقد جاءت كأنها
« قصة » :

فأنشدته مدحى البرمكى	أبا الفضل أعنى الفتى جعفراً
فأعجبني ظرفه إذ يقول	مدحك در فهل دررا
فقلت مقال امرئ شاعر	أدافع عنه لى يمدرا
إذا ما مدحت امرءاً من (خ...)	أليس جزائى أعطى (الح...)

وهذا هجاء موقور ، ولا سيما البيت الأخير ، وفيه الدلالة
على أنه كان مجرماً . ثم يخرج به الغيظ عن حد المنطق والصواب
فيرمى جعفرًا بالبخل :

أرى جعفرًا يزداد بخلاً ودقه إذا زاده الرحمن فى سعة الرزق

ثم يعم البرامكة فى الهجاء :

هذا زمان القروذ فاخضع	وكن سامعاً مطيعاً
كأنهم قد آتى عليهم	ما غال اسماعيل والريما

إذاً فقد يئس من البرامكة نفخر بهذا مورداً للمال ، ورجالاً يهبون من المال ما لا يقل عن هبات الخليفة ، فلو أسعفه الحظ وتولوا أمره ، لصدقت الأساطير فيما تروى عنه من البذخ والترف . فهل عوضه آل الربيع الذين صار إليهم ما يهبون عليه ألم هذه الخسارة ؟ إن الوظائف التي تقلدها الفضل بن الربيع هي ديوان النفقات عام ١٧٢ هـ ، وهي الوظيفة التي كان يتقلدها حين قدوم النواصي دار السلام ، ثم الوزارة عام ١٨٩ للهجرة وهو العام الذي نكب فيه البرامكة . فأين ديوان النفقات من وزارة البرامكة ، وأين مقدرة الفضل بن الربيع من مقدرة جعفر ورجال البرامكة وقدرتهم على النفع والضرر والهبات ؟ لم يكن الفضل ابن الربيع رجل اليوم وإنما هو رجل الغد المرموق .

لم تذكر الروايات الأدبية هبات آل الربيع وعطاياهم لشاعرهم المقبل عليهم بمداخحه ، والذي سينقطع إليهم بعد حين . ولكننا نتكهن أنه لم ينل منهم خيراً ينقع الغلة قبل أن يتولى الفضل الوزارة ، ويصبح واسع الحول والطول ، قادراً على النفع والضرر . ولا شك في أن هذه القصيدة التي يسأل فيها العباس بن الفضل مركباً برذوناً ، أو بغلاً ، أو حماراً ، قيلت قبل وزارة أبيه .

عنيت بمركب البرذون حتى أضرم الكيس إغلاء الشعير
 فلت إلى البغال فأعوزتني فلت من البغال إلى الحمير
 فأعيتني الحمير فصرت أمشي أزمجى الرجل كالرجل الكبير
 ومثلها القصيدة التي يصف فيها حاله ، وأنه بلا نشب قد خف
 ظهره وقل زواره ، وماتت أوطاره ، وأنه :

من نظرت عينه إلى فقد أحاط علماً بما حوت داري
 خيري من البيت كامن وعلى مدرجة الطريق أسراري
 إني انتبعت العباس ممتدحاً وسيلتي جوده وأشعاري
 إني حري بأن يبدلني جود يديه يسراً بأعسار

وهي قصيدة شاكية موجعة بالغة في الشكوى والتوجع .

ولقائل أن يعترض بأن الشاعر يهول في وصف حاله ليحتال على
 هذا القتي فيستل معروفة . وهو اعتراضٌ وجيهٌ . فلا شك أن
 النواصي أراد التهويل ، وبالع في الشكوى ليصل إلى معروف
 صاحبه ، فلم يعسر ولا ضاقت ذات يده — في يوم — بالقدر
 الذي وصف . ولكن يبقى شيء آخر ، وهو أنه لم يكن قادراً
 على قول هذا لو كانت أعطيات القوم له بالغة ، وإلا فإنهم يعدون
 مثل هذه الشكوى منه كفراناً بالنعمة .

لم تكفه أعطيات آل الربيع ولا استطاعت أن تقوم بأمره .
 فغدا على غيرهم من الأمراء كما أسلفنا ، وارتحل إلى مصر .

وإذا كانت هنالك عطية حرة أن تجزّل وتعظم ، فهي عطية
الخصيب لما يتجشم لها من مشاق ، فتنى النفس وأسرف في
الأماني والخصيب بعد والٍ على مصر :

أنت الخصيب وهذه مصر فتدفقا فكلا كما بحس
لا تقعدا بي عن مدى أمل شيئا فما لكما به عذر

فهل قعد به الخصيب عن مدى أمله ؟

إني لآمل يا خصيب على يدك اليسارة آخر الدهر
وكذاك نعم السوق أنت لمن كسدت عليه تجارة الشعر
فانقم بسبك غلة ترح بي عن بلادي وارتهن شكرى

فهل تقع الخصيب غلته ، وهل قدر على أن يرتهن شكره ؟ ؟
وقبل أن نجيب عن هذا السؤال نقف قليلاً عند هذا الشطر
من الشعر « كسدت عليه تجارة الشعر » لنسائل أنفسنا : أكان
أبو نواس منصفاً في وصف سوق الشعر ببغداد ؟ ؟ والجواب :
نعم ، ولا . نعم ، فما كان سوق شعره رائجاً عند « صيارفة المال »
ببغداد كما كانت الحال عند غيره من الشعراء الذين هم أقلُّ
قيمة فيما يعرضون من بضاعة . فليس له من الرشيد حظ ولو دون
حظ النهرى والعتاهى وابن أبي حفصة بعشرات الدرجات .
وباعدت الظروف بينه وبين البرامكة ، وغلبه الخليع على صالح

وعيسى ولدى الرشيد . والجواب : لا ، لأن هؤلاء الأمراء
والعظماء الذين كان يتردد على قصورهم بالمديح ، لم يكن ينصرف
من لديهم بدون أعطيات ؛ وإلا فكيف كان يستطيع أن
يعيش هذه العيشة اللاهية العابثة المترفة بين الخور والقيان
وفي حدائق بغداد ؟ .

قطرل مربى ولى بقرى الكرخ مصيف وأمى العنب
ترشعنى درها وتلحظنى بطلها والهجير يلهب
ونعود إلى حديث الخصيب ونجيب : إنه لم يقدر على أن يرتهن
شكره ، فقد هجاه واتهمه بالبخل والكراسة :

جعل الطعام على بنه محرما قوتاً وحلله لمن لم يسغب
فاذا هم رأوا الرغيف تطربوا طرب الصيام إلى أذان المغرب
وقال فيه وأخش :

نفس الخصيب جميعه كذب وحديثه لجليسه كرب
تبكى الثياب عليه معولة أن قد يجر ذيلها كلب
يقول ابن منظور إن النواسى ذكر له أن الخصيب لم يهب
له سوى مائة دينار .

وقد أراد النواسى أن يظفر من مصر بالثراء فأقبل على سراة
القوم يمدحهم فلم يحظ منهم . فأقبل على أهل مصر يعثمهم

بالهجاء مستثنياً واحداً منهم هو « ابن جوى »

يا أهل مصر لقد غيتم بأجمعكم
أموالكم جرة والبخل عارضها
لا حوى قصب السبق السامع
والنيل مع جوده فيه التماسيح

هذا هو حديث النواسى من ناحيته « المادية » وما أكثر

ما كرر مثل هذه الشكوى :

يا عمرو ما للناس قد
أترى السباحة والندى
كلفوا بلا ونسوا نعم
رفعا كما رفع الكرم

وقوله وهو أبين وأفصح في الإعراب عن الشكوى :

ذهب الناس فاستقلوا وصرنا
كلما جئت أبتغى الفضل منهم
وبكوا لى حتى تمنيت أنى
فى أناس تعدم من عديد
خلفاً فى أراذل الناس
بدرونى قبل السؤال بياس
مفلت عند ذاك رأساً برأس
فاذا فتشوا فليسوا بناس
وأكثر من مثل هذا القول :

إن دام إفلاسى على حاله
وبست أثوابى وإن بتمها
هجرت إخوانى وأصحابى
بقيت بين الدار والباب

وقوله :

الحمد لله ألم تنهى
فامنع عن النفس هواها فقد
تجربة الناس عن الناس
أذلى للناس إفلاسى

وهى أبيات تعين الباحث على معرفة حال النواسى المادية

كثيراً . فكلمة الإفلاس تتردد كثيراً فى شكواه . والإفلاس

لا يعنى حالة موجعة مطردة ، وإنما يعنى حالتين — حالة يسار أو شبهها كان بها المفلس ، ثم الحال التى صار إليها بعد أن فقد اليسار . وأفلس من معناها فى اللغة أصبحت دراهم الرجل فلوساً . وهذه هى الحال مع أبى نواس ، فيا شدة ما أصبحت دراهمه فلوساً ، فهو يشرب الخمر ويلهو ويغدو على القيان والغلمان . وهى أحوال ترضى معها الدنانير وتدع الدراهم بمرتبة دون مرتبة الفلوس . وأبو نواس يعلم أن الخمر هى التى تصنع به ذلك ، تقلل فضله عند القوم السراة فيطففون هباته وينفق فى سبيلها هذه الهبات .

والراح أهواها وإن رزأت بلغ المعاش وتلت فضلى

وهناك سبل أخرى غيرها للافلاس . فقد كان الرجل مسئولاً عن ذوى رحم — وهذه طريقة ثانية للانفاق . وهو بعد زعيم طريقة فى الأدب والحياة ، له رفاقه ومريدوه ، يقبلون عليه ليغدوا معه على حانات بغداد ، وحدائق القفص إن لم يكن ذهابه إلى الأخيرة فى ركاب أمير . وهؤلاء الرفاق والمريدون يقبلون عليه ما وسعهم يساره فإن أفلس فقد جذوا حبله :

صل من صفت لك فى الدنيا مودته ولا تصل باخاء حبل جذاة
يموذ بالله إن أصبحت ذا عدم وليس منك إذا تثرى بمعتاذ

وهى طريقةٌ ثالثةٌ للاتفاق لعلها أكثر من غيرها
 التهاماً للمال ، وتضييعاً له . يضاف إلى هذه خلق أبي نواس
 السمع الذى يرى فى المكاس ضراعة ، وفى مساومة الخمار عاراً .
 أعاذل ما فرطت فى جنب لذة ولا قلت للخمار كيف تبسّع
 أسامحه إن المكاس ضراعة ويرحل عرضى منه وهو جميع
 ويأتى من وراء هذا كله مذهبه فى الحياة وليس من شأنه
 أن يعين على ثراء .

فاشرب وجد بالذى تحوى يداك لها لا تحذر اليوم شيئاً خوف فقر غد
 فعاش عمره يراوحه اليسار ، ويغاديه بعض الحين الإفلاس .
 ومات ولم يخلف شيئاً .

معيشة ومذهب

لم يك تردد النواصى على هؤلاء العظماء والوزراء وأكابر
 الناس ببغداد ، وحبّه فى أن يحسب على بعضهم ويعد
 من مواليهم إلا لأنهم السبب الذى يعينه على العيش . فهو محتاج
 إليهم لهذا . ولو أسعفته المقادير ، واستقلت ثروته بلذته
 كما يقول لما غدا على باب أحد منهم ، ولا أثر عليهم وعلى أبوابهم ،

أبواب الحانات يقرعها وقد ترفعت الثريا ، وحياة يقضيها
 كما يشتهي « صريع غزلان وكاسات » في حدائق القفص ،
 وقرى الكرخ . فالتردد عليهم ومدحهم ضرورة قسنته عليها الأيام
 وقد كانت الحمر كثيرة وميسورة ببغداد ، يشربها جل
 طبقة النواصي ويصفونها ويصورون كلفهم بها . ولكنه أربى
 عليهم في هذا الوصف والتصوير . وظنى أنه أربى عليهم بشربها
 فشربنا شرب قوم عطشوا من عهد عاد

وكان عشق الغلمان معروفا لا يكاد يكون مستنكراً ، ولكنه
 زاد على من تلا ولحق . وكان العصر سوق جوار وإماء . فطربت
 لهن النفوس ، وتغزل بهن الشعراء ، وكلف بهن النواصي كلفاً
 شديداً . ولم يقصر عن غيره بل ربما زاد عليهم . أخذ بهذه
 الحياة في البصرة فتى لم يطرّ شاربه ثم تفرغ لهذه الحياة ببغداد
 وقد رضى بها عن كل مطمح .

رضيت من الدنيا بكأس وشادن تحير في تفصيله فطن الفكر

فإذا ساعفته الدراهم والدنانير سار إلى هذه الحانات المبتوثة
 في أطراف العاصمة ، أو في القرى المجاورة ، والتي يقوم عليها كما
 يقول النواصي دهاقين من المجوس أو اليهود أو اليهوديات ، أو

من أصحاب الملل الأخرى التى تبيح لمعتنقيها شرب الخمر والمتاجرة
بها ، وكان أبو نواس ومن على شاكلته يطرقون أبواب هؤلاء
الناس فيفتحون لهم ، بعد أخذ ورد قليل ، ليتعرفوا وجوه
القوم ، ويظهر من ذلك أن بيع الخمر لم يكن ليتم للمسلمين إلا
باحتراس قليل . لأن الحذف فيها وإن تغوضى عنه وأهمل ، لم يكن
قد أبطل . فكان أصحاب الخمرات يتوجسون من السعيات .

فزع من إدلاجنا بعد هجعة وليس سوى ذى الكبرياء رقيب
تناوم خوفاً أن تكون سعاية وعأوده بعد الرقاد وجيب
ويتوجسون أيضاً من أن يكون هؤلاء المدلجون من
الذين تكثر عربدتهم ويماكسون وقد لا يدفعون . ولكن
هؤلاء الدهاقين يعرفون صاحبنا حتى كلابهم تألفه فلا تهر عليه :

إلى بيت حان لا تهر كلابه على ولا ينكرن طول ثوائى

ويعرفون جماعته فهو لا يصحب إلا السراة الأمائل :

وأصطحب القوم السراة كأنهم نجوم تراءت من مطالعها الزهر

وفتية كهصايح الدجى غرر شم الأتوف من الصيد المصاليث

صالوا على الدهر باللهو الذى وصلوا فليس جبلهم منه بمبتوت

نادمتهم قرقف الإسفنت صافية مشمولة سبيت من بيت تكريت

وندى كل خرق زاته عتق نبحاره

ويعرفون منه غير ندمانه ورفاقه ، سرفه وعدم مما كسته وأنه

يدفع فوق ما يطلب منه ، وتلك سجية ترغهم على الترحيب به ، وإظهار البشاشة والإعزاز له . وخلة أخرى وهي كرهه للعريضة ، وأنه لا يطيقها في مجلسه حتى لكانه يتفقد رفاقه قبل الشرب هل فيهم عرييد ، ثم يقول لهم قبل البدء في الشرب : إن هذه الكأس مشغلة بلذاتها ، فتركوا الحديث فيما عداها لئلا يؤدي الأمر إلى ملاحاة :

في الكأس مشغلة وفي لذاتها فاجعل حديثك كله في الكأس
صفو التعاشر في مجانبه الأذى وعلى اللبيب تحيّر الجلاس
ثم يُريهم أن الأخلاق السائغة ، وتجنب المشاكسة والعريضة
صفات يدل بها صاحبها ويفتخر :

لملئ من الفتيان حلت أخى الخمر وطابت له الاذات واسترخى السكر
إذا كان سكرى لا يكدر مجلسى ولا يعتري فيه خصام ولا هجر
وغريب أن ينشد هذا الخلق « الابتعاد عن الخنا » :

خلتنا شر تشينان الفتى حيثما حل ، الخنا والعريضة
ثم يردد هذا مرة ثانية :

ندامى طول الدهر خرس عن الخنا وعمى عن العوراء نزه عن الكبير
وهو يفرق فرقاً شديداً من أن يصيره الشراب هُزاة للناس :

إني بمعنى أن أراك جنية بعد العشاء تماد بالأشطان
وأراك قدام المغار كبومة عمياء وسط جماعة الغربان

وإذا نزل الربيع السهل ، وأورقت البساتين ، واخضرت
الكروم سار إليها يتخير موضعاً لشرابه :

على خزامها وحوذاتها ومشكل من حلل الزهر
ياحبذا الصيحة في العمر وحبذا نيسان من شهر

وهو يشربها في غير الربيع وغير الشتاء ، في كل فصل وفي
كل حين . ولعله إذ يذهب إلى الحدائق الموثقة ، والسهول
المرعة نهاراً ، لا ينسى أن يسير إلى الحانات ليلاً ، فإن له ولعاً
في الشرب في سواده ، إذ هو أعون على الملاهي . وإذا أعوزه
النديم ولم يستطع السير إلى هذه الحانات ، والغدو إلى الحدائق
الموثقات ، لسبب من الأسباب ، شربها وحده . ونادراً ما كان
يفعل فهو لهذا كاره :

نادمتها إذ لم أجد مسعداً أراضه أن يشركني فيها
شربتها صرفاً على وجهها فكنت ساقياً وحاسيها

ولا بدّ مع الكؤوس في هذه المجالس من نقر على العود ،
ذلك أقدح للصفاء وأتم للسرور :

فاستنطق العود قد طال السكوت به لن ينطق اللهو حتى ينطق العود
وهو يرى ذلك شيئاً لازماً :

ولا تشرب بلا طرب وهو فان الخيل تشرب بالصغير

أمضى النواصي عمره أو أكثره في هذه المجالس وهو القائل :

كفيت الصبا من لا يهش إلى الصبا	وضيقت منه ما أضع مضيق
أعاذل ما فرطت في جنب لذة	ولا قلت للخمار كيف تيسع
أعاذل خليني أرو شبيبتي	فان بان لي رشد فسوف أريع

فهو دهره مفتون بالخر ، وما يتبع الخمر من لهو . ولم يك
هو وحده فكثيراً أدركتهم هذه الفتنة . وانظر إليه يصف بغداد
غيباً شهر من أشهر الصيام :

فليس يسمع إلا صوت غانية	مجهودة جدت عهداً لمفترح
والخمر قد برزت في ثوب زينتها	فالناس ما بين خمور ومصطحح

ولا ريب في أن الناس لم يكونوا كلهم كما وصف ما بين
خمور ومصطحح ، ولكن أكثر الناس الذين عرفهم كانوا كذلك .
وهم الطبقة العليا في سلم الاجتماع .

ولم كل هذا ؟ أو بالخرى لم استوفى هذا العصر كل هذه
المناعم والمباهج بين العصور ؟ ولم شدت أعصاب النواصي
وركزت على هذا النحو ؟ وهي أسئلة لا تلقى جواباً ، لأنه في
السؤال الأول يحتاج إلى الإطالة ، والثاني هو للمجهول والغيب .
وقد ألح الناس على النواصي في هذه الأسئلة ، فأجابهم بأجوبة
مختلفة متفرقة ، ولم يصدق إلا مرة .

قال إنه يشرب الخمر ليلهو بها عن همومه :

صفراء تنسيك الهموم إذا بدت وتعبير قلبك حلة السراء
وخال أن الناس خليقون أن يصدقوه فردد هذا العذر مرات :
أديرا على الكأس تكشف البلوى وتلتذ عيني طيب رائحة الدنيا
لست أرى لذة ولا فرحا ولا نجاحا حتى أرى القدحا
نعم سلاح الفتى المدام إذا ساوره الهم أو به جمحا
وهو غير مُطالب بأن يبوح للناس بما تقي همومه ، ولكنه يذكر
بعضها أحيانا ، فإذا هي همومٌ على أحبة لم يفوا ، وشوادن لم
يسعفوا ، وألآفٍ نرحوا .

دعت الهموم إلى شفاف فؤادي وحت جوانب مقلتي ورقادي
ورق بتفجعة تنوح أليفها غلس الدجنة في ذرا أعواد
واقعد أزجّسى الهم حين ينوبني والشوق يقدح في الحشا بزناد
بعدماء ورث الزمان لبابها عن ذى الأوائل من أكابر عاد

وأجاب ثانية بأنه يشربها لينعم بها شبابها :

نعم شبابك بالخمر العتيق ولا تشرب كما يشرب الأغمار من ماذى

وأجاب ثالثة بأنه يشربها لأنه يدرك شيئا لم يدركه الناس ،
وهو أن شبابه إلى تصرم وانتهاء ، وأيامه إلى نفاذ وانقضاء ،
ونظره إلى الناس احتقاراً وازدراء :

وهان على الناس فيما أريده بما جئت فاستغنيت عن طلب العذر
رأيت الليالي مرصداً لمدتي فبادرت لندائي بمبادرة الدهر

ويقول إنه يشربها ليستنصف بها الأيام من أحداثها :

فأنف الوفاة عن المجون بقهوة حمراء خالط لونها أقدار
فاستنصف الأيام من أحداثها فلطالما لعبت بك الأقدار

فتتمنى لو دانت لصاحبك الأقدار وأسعفته الأيام ليقطع عن
هذه العادة وليترك هذه الخمر التي يلهج بذكرها ويمسوها في كل
حين . ولكنك تعرف أن كل ما ذكر ليس إلا أعذاراً وقد
يكون أكثرها مختلفاً ليسوع بها شربه إياها ، إذ تراه يندو
على شربها ، وقد انتفت حالة الهم ، ومعاندة الأيام ، وواتاه
الدهر بما يشتهي ، ودارت أيامه بالسعود ، وإذا صاحبك بهذه
الحال لا يرضى بها تأتية بالكوب الصغير بل يطلبها بالكبير :

إسقى إن سقيتني بالكبير من لذية الشراب لا بالصغير

قد تدانت لنا الأمور كما نهوى وذلك لنا رقاب الدهور

وهو شاربها في حالتي يسره وإعساره :

نخمة أنت لها راجع في حالتي يسر وإعسار

وتعلم أن الأمر جد إذ يقول :

إنما العيش في مباركة الخمر وشكر بدوم في كل حال

على أنه يكاد يجيبك بالصدق إذ تكثر عليه اللوم :

لا عيش إلا المدام أشربها مفتبها تازة ومضطحا
يا صاح لا أترك المدام ولا أقبل في الحب قول من نصحا

كاد يقارب الصدق ، ولكنه يصدق الصدق كله إذ يقول لك
شارحاً السبب الذي يجعله يكلف بهذا الشراب ويبذل فيه
ماله وجهه .

ألا لا تلحنى في العقار جليسى ولا تلحنى في شربها بعبوس
لقد بسط الرحمن منى مودة إليها ومن قوم لدى جلوس
تعشقها قلبي فبفض عشقها إلى من الأموال كل نفيس

هذا هو الصدق وقد دار عليه النواسى كثيراً . فهو يشربها
لأنه أدمن تعاطيها بعد أن خلق بمزاج يهش إليها . وقد يتوهم
بعض الكتّاب الكرام أن النواسى يبطن وراء ذلك هماً وحزناً
دفيناً^(١) يُغشيه بستر من الاستخفاف « واللا أباليه » .
ويشرب الخمر لينسى هذه الهموم والأحزان الدفينة ، كما يصنع
الخيام ، ويجىء هذا الوهم من أعذار النواسى التي أسلفنا القول
عنها ، والتي منها الهم . وليس من المستبعد أن يلم به طائفة من

(١) من هؤلاء الأستاذ الفاضل أنيس المقدسى — في كتاب أمراء
الشعر العباسى — فقد جعل من النواسى شاعراً مفرطاً في التشاؤم .

هم فيشرب كأساً لينساه . بل لا بُدَّ من ذلك . وأية حياة تخلو من هموم وأشجان — ولا سيما حياة الشعراء ذوى الحس المرهف — ولكن تقدير مذاهبهم لا يكون بالنظر إلى هذه الحالات الطارئة ، وإنما هو بالنظر إلى حياتهم كسلسلة تامة ، بصرف النظر عن بعض حلقات لا بُدَّ أن تجيء بها لأنها حياة إنسان قبل كل شيء . وفرق ما بين خمر النواسى والخيام . إن الخيام يشربها وأذنه للغيب تتسمع أصداء الجهول علّها تتلقف أجوبة عن الأسئلة الحائرة عن العلة والمعلول ، وما كان وسيكون . وقلبه مشغول بالكون وامتداده ، والأبد ونهايته . أمّا النواسى فأذنه للنغم ، وعينه على الوجه الصبيح ، والكثبان المهيّلة ، وقلبه مشغول بما كان وسيكون — ولكن من صدِّ ونقار ، وقضاء لبانات وأوطار . ولا شيء خلاف هذا

فالنواسى هو السرور ومجالسه هي التي يقول فيها :

ومجلس ماله شبيه حل به الحسن والجمال
يمطر فيه السرور سحاً بديمة مالها انتقال

وهو الذى يقابل الشعراء المفكرين المتشائمين فى الحياة ، ويجيء مضاداً لهم . ولم يرتفع النواسى فى لذاته عن رغائب الحسن

القريبة التناول . ولم يشغل باله وخاطره في غيرها ، وفي غير الحديث عنها . حتى الطبيعة إذا صار إلى وصفها لم يستطع أن يصف منها إلا الجانب الذي يراه طالب هذه اللذائذ . ففيها ورد وريحان ، وفيها ماء وأعصان . وهذا مما يعين على الشراب فكأن هذه الطبيعة حانة لرواد الحانات ، بل هي ليست شيئاً . وخير من وصفها وصف الخمر .

وليس من الغرابة بعد هذا أن تمر بديوانه فلا ترى فيه وصفاً للنسيم المنعش الذي تغنى به الشعراء .

ويجىء مع هذا طبيعة عشقه . فهو العشق الذي ينظر فيه إلى جانب اللذة والمتاع ، ويحرص فيه على أن ينفي منه كل ما يبعث حزناً أو همماً ، فلم يعرف عنه وهو المفتون بالجمال أنه عشق وتوله بالعشق . وعشقه « جنان » مع أن أهل عصره كانوا يشكون في صدقه ، قد جاء في أوائل الصبا ، وساعد على تلهيه وقدة الشباب ثم همد سريعاً وانطفأ .

وكذلك الشأن في حديث هذا الشاعر مع أصدقائه وعُشرائه ، فهو معهم في مثل أخلاق النديم ، يلتاقهم فيسمعهم ما يحبون أن يسمعوه . فهو يقول للخليع إذ يلقاه : « أنت أشعر أهل زمانك

في الغزل إذ تقول « . و يروى أبياتاً من شعره ^(١) وإذا تناشدوا
وأنشد العتاهي قال : هذا المطمع الممتنع . ولكن إذ يتفرق هؤلاء
الخطاء والعشراء فليس أمره إلى كبيرهم :

لا تبك بعد تفرق الخطاء واكسر بمائك سورة الصهباء
كذاك إني إذا رزئت أخاً فليس بيني وبينه سبب
لا تحزن لفرقة الاخوات واقير الهموم بمذهب الأحزان
وعله لم يرد عدم الوفاء . ولكن طبعه أن يُتقى من درب
حياته أشواك الهموم والأحزان .

وأن يأتي حديث الزهد من هذا المزاج وهذه الطبيعة وليس
في هذا تنافر ، وإن جاء النغم ناشراً من عدم المران عليه وسماعه
من هذا الشاعر ، فالنواصي شاعرٌ تتحكم به الأعصاب كما أسلفنا ،
وليس هو برجل فكر أو مذهب من مذاهبه - أي الفكر -
يُطيل عنده وقفته ، ويعمل فيه منطقته .

ومن الظلم أن نحمل أعصاب النواصي ونطالبها بفلسفة ، فيما
عدا الحديث العايب في الخمر واللهو وما يتبعهما من مجانة ، إذ كنا
لا نستطيع أن نقول للنواصي في معرضٍ من معارض الفكر أصبت

أو أخطأت . ولا هو يطلب ذلك منا . ولكنه يطلب ويلحُّ في الطلب . ونستطيع أن نقول له أجدت في هذا الوصف وأبدعت في الشعر وأطربت . وبذلك نريح أنفسنا من عناء لا طائل تحته في البحث في ديوانه عن أبيات تستهدف غايات فلسفية ، أو هي من أبيات الحكمة ، ثم نتخذها دليلا على أن النواسى كانت له فلسفة وكان حكيما . . .

شاعرٌ جديد

تطور الشعر ببغداد وفي ظل الترف ، ورق في معناه ومبناه عما كان عليه في الشام ، وفي أواخر الدولة الأموية . فلا سبيل إلى مقارنة شعر النواسى والخليع والعتاهى ورفاقهم بشعر الأخطل وجريز . إنَّ شعر الدولة الأموية يلتفت إلى وراء ، وهمُّ أصحابه أن يقاربوا الصنعة الجاهلية . أما شعراء الدولة العباسية فجهدهم أن لا يأتوا بالصنعة الجاهلية وطرائق الجاهليين .

وحينما قدم النواسى بغداد لم يكن فيها من يتبع الطريقة « التقليدية » من وقوف على الأطلال ومخاطبة الدمن والنياق . وقد جانب هذا وغايره الطبقة التي سبقت طبقته ، وهي طبقة

بشار ورفاقه . فكان النواسى قادراً على سلوك الطريق الجديدة الممهدة دون وضوء أو شغب . ولكنه أثر أن يسلكها بضوء وشغب ، وأثر أن يسلك الجانب الوعر الذى قلما كان يرتاده أحد من الشعراء ، وإذا ما ارتادوه فهم يحسبون الحساب كله لقالة الناس وآرائهم . أما الطريق الممهدة فهي وصف الواقع ، وتصوير الحياة التى يعيشها الشاعر . وأما الجانب الوعر فهو وصف الخمر والمهوى والدعارة . ووصف الواقع أرادته النواسى للصدق . أما وصف الخمر وما يتبعها فقد أرادته للصدق أيضاً ، ومع الصدق ميل غير قليل إلى حب الشهرة .

إن شهرة النواسى تستمد من قوة شعره ، وبراعة وصفه وتصويره ؛ وتستمد أيضاً من هذه السيرة الداعرة . بل هى مدينة لهذه السيرة أكثر من دينها لقوة الشعر . وما كان ليخفى على النواسى — وهو الذكى — أية شهرة يمدّها له سلوكه هذا إلى الجانب الذى يتهيبه الشعراء « فقد كان أسير الشعراء شعراً » كما يذكر ابن رشيق فى العمدة .

ويلوح لقارىء ديوانه أنه أطل البحث عن هذا المذهب الجديد ، وأنه أخذ فى المذهب القديم ولو قليلاً ، فهو يقول :

صفة الطلول بلاغة القدم فاجعل صفاتك لابنة الكرم

ثم يقول في ختام هذه القصيدة بعد أن يصف الخمر :

وإذا نعت الشيء متبعاً لم تخل عن غلط وعن وهم

وهي أعذار عن وصف الخمر ، وتدليل منطقي على أن الشاعر

أقدر على وصف ما يراه من وصف الشيء الذي لم يره .

وفي الشطر الأول من البيت السالف مذاراة للقدماء بأن نعت

الطلول بلاغة ، وهي بلاغة اختص بها الأقدمون .

ويذكرون أنه عرض على بشار قصيدته في نعت الخمر ، وفي

هذا دليل على نظمه إياها أول مجيئه إلى بغداد ، وإن كنت

أشك في أنه أدرك بشاراً فقد توفي عام ١٦٨ هـ وفيها يقول :

مالي بدار خلت من أهلها شغل ولا شجاني لها شخص ولا طلال

ولا قطعت على حرف مذكرة في مرفقها إذا استمرضها قتل

بيداء مقفرة يوماً فأنتها ولا سرى بي فأحكيه بها جل

لا الحزن مني برأى العين أعرفه وليس يعرفني سهل ولا جبل

لا أنت الروض إلا ما رأيت به قصراً منيفاً عليه النخل مشتمل

ولا نعرف أطالت مدة بحثه عن مذهبه الجديد في النظم ،

ومشاورته لنفسه في النظم فيه ، ومخالفة طريقة الأقدمين . ولكننا

نرجح أنه أخذ فيه ببغداد .

وقد نظم النواسى الشعر بطريقة الأقدمين فهو يقول فى قصيدة:

إلى الله أشكو حب من جل نيله	على كلام من وراء جدار
صبرت لها حتى إذا ما تفجرت	بشور الهوى حولى وكان خمارى
جعلت رداق السيف ثم طرقتها	مفاوض أهوال خلع عذار
فكدنا ولا غير أن شفاها	تعاطت خليطى سكر وعقار
وودعتها صبحا ولم أنس صدها	وقد بادلتنى خاتما بسوار

وهى قصيدة عامرة ، ولكن ليس فيها شيء من روح النواسى ، وإنما هو ينظر فيها إلى عمر بن أبى ربيعة وجميل وهذه الطبقة . ومتى كان النواسى يشتمل على السيف وهو ذاهب إلى لقاء من أحب ليبادها سواراً بنخاتم أو خاتماً بسوار ؟ وهل تتسع بغداد والبصرة أو تتطلب الذهب وهو مشتمل على السيف للقاء الأحباب ؟ .

اتهى من هذه المرحلة التى وقف عليها قليلا . وبعد أن كان يرى أن صفة الطول بلاغة الأقدمين ، أخذ يهاجم هذه البلاغة ويشنع عليها وعلى أصحابها بهوى ، ويشايهم برأى . وأخذ يدلل على أن وصف الخمر خير من وصف الطول والنوح عليها . ومن لم يقنعه التدليل ركه بالسخرية ، ودعاه إلى الإغراق فى وصف الخمر يفعل هذا ومعه ميل إلى حب

الشهرة . وتفصيل ذلك أن بغداد كان يتقلب عليها من الشعراء في الفترة التي عاشها النواصي ثلاثة شعراء كبار : أبو العتاهية ، والحسين بن الضحاك ، وأبان اللاحق ، أما أبو العتاهية فقد كان غمر البديهة . ولعله أقدر من عرفت العرب من شعرائها على الارتجال . وقد كان يجيد شعر الزهد والمديح ، وأما اللاحق فقد انقطع للبرامكة ، ونظم كليلة ودمنة شعراً ، ومعنى انقطاعه للبرامكة إجادته للمديح أيضاً . وأما الضحاك فقد كان يجيد في أكثر فنون الشعر ولا سيما الخمر والغزل . ولكنها إجادة ليست بالمتقطعة . وكان النواصي يعلم أنه لا يجيد المديح إجادة العتاهي — على الأخص — . وأما الغزل فما نظنه كان يجهل أن شعره فيه تنقصه عواطف المحبين حقاً . وقد جرب نفسه في البصرة فلم يأت منه بكبير طائل ، وهو القائل في جنان :

وجه جنان رياض دنيائى ترتع فيه ظباء أهوائى

تصطادها أكلب الصدود إذا يدعو إليها الهوى بايماء

أهو وجه محبوب ، أم ساحة صيد . فلم يبق إلا وصف الخمر والإغراق بهذا الوصف حتى يعرف بأنه شاعرها ، وكان له ذلك . وكان يرى لنفسه الحق وقد انقطع إليها أن ينهب كل معنى يخاله

طريقاً . فهو ينهب معاني الوليد . وإذا أعجبه معنى من معاني
الخليع ، ادعاه لنفسه ، وأخذ منه قوة وعنوة . ثم ينظمه بشعرٍ
سائع قريب إلى الأنفس فيعرف أنه صاحبه . سمعه مرة ينشد :

حتى إذا أسندت في البيت واحتضرت عند الصوح يبسامين أكفاء
فضت خواتمها في نعت واصفها عن مثل رقاقة في جفن مرهأ
قال الحسين فصعق صعقة أفرعتني ثم قال : « أحسنت .

هذا معنى كان فكري لا بد أن ينتهي إليه وسترى لمن يروى
ألى أم لك » فأخذ البيتين بمجملتهما . وأنشده مرة هذا البيت :
تماله نصب كأسه قرأ يكرع في بعض أنجم الملك
فأنشده النواصي بعد أيام لنفسه :

إذا عب فيها شارب القوم خلته يقبل في داج من الليل كوكبا
فقال له الخليع : « هذه مُصالبة يا أبا علي » فكان جوابه :
« لا يروى لك في الخمر معنى جيد وأنا حي » .

وكان النواصي يقول له بعد أن يُطرى شعره في الغزل ويرد
عليه الخليع : وأنت ألا تفارق مذهبك في الخمر ؟ : « لا والله
وبذلك فضلتك وفضلت الناس جميعاً » .

ويروى «الأغاني» أن أبا العتاهية طلب إليه أن يكف عن قول
الشعر في باب الزهد ، كأنما هذا الباب حرم على غيره ، وكأنما

تقاسموا - ضمناً - أبواب الشعر ، فمن صار إلى غير بابهِ فقد
 بغى واعتدى . وقد روعى في هذا التقسيم حال الطبع والمزاج .
 وجدّ النواسى في مذهبه الهازل ، وأخرجهُ الجدُّ عن حدود
 الاعتدال ، فهو زارٍ على كل ما لا يتصل بمذهبه الجديد ،
 وطريقة الشعر القديم متصلةً أوثق اتصال بحياة العرب وعيشهم
 في البادية . ولهذا فهو ساخطٌ على هذه الحياة وعلى هذه البادية ،
 ولا يرى أنها خليفةٌ بغير هذا السخط والازدراء . وهو كلفٌ
 بمذهبه الجديد في وصف الحياة التي يحياها ، حياة بغداد ، ووصف
 الحمر ، كلفٌ بهذه الحياة وهذه الحمر ، مُدللٌ حتى بمساوئهما ،
 إن أحوج الأمر ، وشدّ ما كان يحوج . والتدليل على هذا من
 شعر النواسى يقضى بنسخ معظم ديوانه لأن أكثر شعره يجري
 على هذا السنن .

ومن هنا كانت تجميـء سخريته مؤلّة قاسية ، لأنها للجدِّ
 لا للفكاهة . فأنت تضحك منها ولسكنك تشعر أن الشاعر لم
 يسقها لهذا ، وإنما ساقها للإيلام . فقد كانت ثقيلة على الذين
 يركبهم بها « وهم العرب » ، والمحافظون منهم على القديم ،
 والمؤثرون له بوجه خاص ، وخذ مثلاً منها ، فهو يقول :

لا تنس لي يوم العروبة وقفة تودى بصاحبها بغير فساد
ويهللك هذا المقطع ، ويشوقك إلى الجلد الذي وراءه ،
ولكن أى عبث وأى سخرية إذ يقول :

يوما شربت وأنت في قطربل خمرأ تفوق إرادة المرتاد

ويقول في قصيدة يصف النذل الذي جاءهم بالخمير :

جاءها مستمداً « كالحارث بن عباد »

قد جال الحكم منها كنزاع في قتاد

فسل منها بزالا فسال مثل الفصاد

وهي صورة عابثة ومضحكة ، ولكنها على عبثها مؤلمة ،
فما كان فريق من العرب ليرتاح إليها ، ومثلها قوله يخاطب الخمر :
فقد ظفرت بصفو العيش غائمة كغم داود من أسلاب جالوت
وقوله وهو النهاية في توقيير « الخمار » :

قالت كذبت على طيفي فقلت لها إذن فعاديت يا مكنون خمارا

وأكثر ما تجيء هذه السخرية اللاذعة في سبيل تأييد

مذهبه الجديد ، مثل قوله الذي يزرى به في الوقوف والواقفين
على الأطلال :

قل لمن يبكي على رسم درس واقفا ما ضر لو كان جالس

أو قوله :

سقياً لغير الحيام والطلل وغير عبرانة من الإبل

عجبت من نعتها وناعتها وأى نعت يكون في الجمل

ولا مرء في أن القدامي كانوا يألون من هذه الأبيات ،
ويذكرون عند قراءتهم الشطر الأخير « وأى نعت يكون في
الجل » الآية الكريمة « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت »
فيزيد ألمهم . وأية سخرية في هذا الصورة التي جاء بها للتعريض
بالشعر العف والحب العذري :

وقصرية أبصرتها فهويتها هوى عروة العذري والماشق الهندي
فلما نادى هجرها قلت واصلى فقالت بهذا الوجه ترجو الهوى عندي
ويكثر في لذعاته مثل هذا التضمين الساخر الذي يخرج عن
معناه الذي وضع له :

فلما أن وضعت عليه رحلى تنفى منشداً شعر امتداح
ألستم خير من رك المطايا وأندى السالين بطون راح
وهي سُخرية ما كنا لنجىء بها لولا أن البيت الأخير تذكرة
العرب « كأمدح بيت قيل » . وكل فكاهاته تجيء في هذه
المعارض كاوية وهي للإيلام أولاً . وله بعض الفكاهات التي
تضحك ولا تؤلم ولكنها قليلة وأكثرها ماصوراً وهو في البصرة .
وليس الممول في تقدير قيم الشعراء والأدباء على سلوك طريقة
جديدة أو قديمة ، وإنما هو على مقدار الإبداع في هذه الطريقة .
فأين كانت منزلة النواسى بين شعراء عصره ؟

لقد كانت منزلة رفيعة ، وشهرة ضخمة ، وجماعة عصره لا يفضلون عليه إلا شاعراً واحداً هو أبو العتاهية . فهم يقولون إن النواسى أشعر أهل زمانه ، ولكن العتاهى أشعر الإنس والجن . وكان النواسى يقرُّ له بهذه المنزلة ، فهو يقول على ما يروى أبو الفرج : « مارأيتَه — أى العتاهى — إلاّ خلتنى أرضاً وأنه سماء » .

ويقول الجاحظ : « مارأيت أحداً أعلم باللغة من أبى نواس ، ولا أفصح لهجة مع حلاوةٍ ومجانبة استكراه » ويقول النظام : « هذا الذى جمع له الكلام فاختر أحسنه » .

وأبو العتاهية — أمير الشعر فى هذه الفترة — « كان يقدمه ^(١) » ويقول الجرجاني فى الوساطة : إنه و بشارا أشعر المولدين . ويروى ابن رشيّق فى العمدة عن الجاحظ مثل قول الجرجاني : « ما نعرف شاعراً مولداً هو أشعر من بشار وأبى نواس » .

ونسوق هذه الأقوال وهى تتف قليلة من أقوال كثيرة لنبيين المنزلة التى بلغها النواسى فى نفوس معاصريه ، وهى منزلة رفيعة بلغها بحق وعن جدارة بهذا الشعر الذى بين أيدينا ،

والذى على فرط اعتنائه بتنقيته ، لا يخلو من ركافة - بعض
الحين - أشار إليها صاحب الوساطة ، ولكنها من القلة بحيث
لا تضر هذه المجموعة والثروة الضخمة من شعره الذى هو مفخرة
من مفاخر الشعر العربى وإن آلم معاصريه بزيارته بعاداتهم
وتقاليدهم شأن كل جمود .

وقد كان من جنائات مذهبه عليه أن رماه العرب بالتعصب
عليهم ، واتهموه بالشعوبية . ورماه الناس لمذهبه ولسُخريته
بالزندقة . ولكن هذه الشعوبية والزندقة ، واتهامه بهما بحق ،
أو بغير حق ، لم ترزاه بعظمته الشعرية .

عصبية

بين الفرس والعرب

الدائع المشهور عن النواسى أنه يتعاجم فى شعره ، ويسخر
بالعرب ، ويفخر بفراس ، ويسوق من يقول بذلك شواهد
من شعره منها قوله :

فاسفنيها وغن صو	نأ لك الخير أعجبا
ليس فى نعت دمنة	لا ، ولا زجر أشاما

وقصيدته التي يقول فيها :

مسارحها الغربي من نهر مرمر ففطربل فالصالحية فالعفر
تراث أنوشروان كسرى ولم تكن مواريث ماأبقت تميم ولا بكر
قصرت بها ليلي وليل ابن حرة له حسب زاك وليس له وفر

ولم يكتب ابن منظور عن قصيد أو غير قصد بهذه الأبيات التي تدلُّ على تفضيل الشاعر لمواريث كسرى على مواريث العرب ، بل أبدل « تراث أنوشروان » كما جاءت بنسخ ديوانه بـ « تراث أبي ساسان » . فظهر النواصي أعجمياً يفخر بالقرس وأنه من أبنائهم

وروى ابن منظور في هذا المعرض أبياته المشهورة :

تدار علينا الكأس في عسجدية حبتها بأنواع التصاوير فارس
قرارتها كسرى وفي جنباتها مهى تدريها بالقسي الفوارس

وتكملُ الصورة ، وتظهر عصية الفارسية على أشدها إذ يروون أهاجيه للعرب ، وتشنيعه على عيشهم . وأبياته في ذلك كثيرة ، بل هي بعض المرات قصائد أنشئت لهجاء الأعراب والأعرابيات . وقد هجا العرب قبيلة قبيلة حتى قيل إنه كان يتنقل بنسبه في قبائلها ليسهل عليه هجاؤها . ثم هجا الأعراب جملةً واحدة :

دع الرسم الذى دثرا يقاسى الريح والمطرا
 وكن رجلا أضاع العلم فى اللذات والخطرا
 ألم تر ما بنى كسرى وسابور لمن غبرا
 منازلهم بين دجلة والفرات أنحصها الشجرا
 لأرض باعد الرحمن عنها الطلح والعشرا
 ولم يجعل مصاديها يرابعاً ولا وحرا
 ولكن حور غزلات تراعى بالملأ البقرا
 فذاك العيش لا سيدا بقفرتها ولا وبرا
 بعازبه حرة يلقى بها العصفور منجبرا
 إذا ما كنت بالأشياء فى الأعراب معتبرا
 فانك أيما رجل وردت فلم تجد صدرا
 ومن عجب لعشقم الجفافة والصحرا
 تعد الشيخ والقيصو م والفقهاء والسمر
 جنى الآس والنسرين والسوسان إن زهرا

واتخذ هذا ديدناً له ، فهو يستفتح كثيراً من قصائده بمثل

هذا المعنى :

والوصف للمومة والفلاة	يأبى العاذل دع ملحاتى
وانف هموم النفس باللدات	دارسة وغير دراسات
حتى تلاق رب شاصيات	ولا قها بأصدق النيات
بنات كسرى خير ما بنات	مخطبات لا مخففات

ومثل قوله المتداول :

عاج الشقى على رسم يسائله وعجت أسأل عن نخارة البلد

يبكى على طلل الماضين من أسد لادر درك قل لى من بنو أسد
ومن نعيم ومن قيس وافهما لپس الأعاريب عند الله من أحد
إلى غير هذا - وهو كثير - وكله يصلح للاستشهاد على
الحال التى يريدونها ، ويذهبون إليها من تهجمه على العرب
وعادات العرب ، وتغنيه بحياة فارس وعيش فارس . وهو لهذا
يُعدُّ أعجميًا ، وسواء أكان فارسياً أم عربياً . وسواء
أدلَّ وافتخر بحياة الفرس ليزرى بعيش العرب ، أم أزرى
بالعرب وعيشهم ليتخذ منه سبباً لمدح الفرس ، فإن ذلك لا شأن
له بقيمته فى عالم الشعر والأدب .

وعلى هذا فإننا نقول إنه لا سبيل إلى فهم النواسى فى هذه
الناحية إلا بفهم البواعث التى دعت إليها .

فبيتا « اسقنى يا ابن أدها » هما من مقطوعة صغيرة يطلب فيها
من نديمه أن يتجاوز عن وصف الدمنة والوقوف على الطلل
ليسقيه ويغنيه . فالصوت الأعجمى فيها ليس المقصود فيه التعاجم
وإنما هو الزرابة على من يستبدل بالأصوات الجميلة ، والخمر التى
وصفها « نعت دمنة وزجر أشام » . والتجاوز عن وصف الطلول
ونعت الدمن ، جزء كبير من مذهب النواسى ، دعا إليه وألح فى

الدعوة إلحاحاً شديداً حتى وصل الأمر إلى الخليفة ، فأمره بذكرها
فذكرها وذكر معه السبب — وهو أمر الخليفة — الذي دعاه
إلى وصفها خيفة أن يظهر بمظهر المناقض وهو الذي لا يعبأ بشيء .
فالتواصى أراد الصدق في مذهبه وقد حمل هذا الصدق على
مركب وعر وهو مضطر .

وقد أراد أن يتجاوز عن طريقة الشعر القديم ، وأن يفرق في
وصف المناعم والمباهج التي بين يديه ، وتحت متناول سمعه وحسّه .
وهذه المناعم والمباهج أكثرها أعجمية . فهو يذكر أهلها بالخير ،
وطريقة الطلول والدمن عربية ، والزراية بها زراية بالعرب وذوق
العرب ، فخيّل إلى العرب أن الرجل يمدح الفرس ويتعاجم ، مع أن
الرجل لم يردّها أعجمية أو عربية ، وإنما أرادها حقاً وصدقاً . مثل قوله :

ليال أروح على أديم	كيت وأغدو على أشقر
خيول من الراح ما عريت	ليوم رهان ولم تضمر
براقعها من سحيق العبير	ومن ياصمين وسيسر
ذخائر كسرى لأولاده	وغرس كرام بي الأصفر
غدا المشترون على أهلها	فقالوا أتيناكم نشترى
خيولا لكم قد أتت فرهة	فن بين أحوى إلى أحو
فقالوا لهم إنما خيلنا	سلافة كرم بني قيصر
ولا تحمل اللبد لكنها	خيول لكل فتى أرهر

ففي هذه الأبيات مدح بالغ لعيشة الفرس والروم .
ولكن أية حال دعت إلى هذا ؟ أليس من الظلم أن ننسى
مزاج أبي نواس ، وحُبّه للحمر ، ومذهبه الجديد ، وعيش
اللهو الذي يدعو له لنضع بدل كل هذا كلمة « أجمية » ؟
إن العرب بعد الإسلام لم يكونوا أهل خمر . فلو أراد
النواصي أن يمدح العرب في هذه القصيدة وشبهاتها فسبيله
إما أن يلغيها ويستخير الله في عدم نظم الشعر الذي لا يقدر
عليه ، وإما أن هذه الخيول المضمرة عليها اللبد يخرجها إلى
ميدان — كخيول عربية — فإذا هي تتراكض وتسهل في
الشرق والغرب ، تطأ أمجاد فارس وتقتحم ممالك بني الأصفر ،
وهو صادق في هذا وفيه الفخر كل الفخر . ولكن هبه فعلها
فأى شيء يبقى منه ؟ ؟ لا يبقى شيء . ويكون شاعراً آخر
لا يكفي أن نضفي عليه روحاً غير روحه ، ونغير من أعصابه ،
وننشئه غير نشأته الأولى ، وإنما يتحتم علينا أن ننقله من عصر
الرشيد والأمين ، فهو غير منسجم معه ، لنضعه في عصر آخر ،
نصعد فيه إلى أوائل العصر الأموي ، أو ننحدر به إلى الدولة
الحمانية ليرافق المتنبي .

إن تعاجم النواسى وزرايته على عيش العرب أكثر ما يرد
 فى خرياته . ولا شك أن إكثاره فيها ووصف مجالسها كان
 يحمل العرب على نقده فيبادلهم نقداً بنقد وتهجماً بمثله :

فدعوني فذاك أشهى وأحلى من سؤال التراب والأحجار
 شغلتنى المدام والقصف عنها بقراع الطنبور والأوتار

شغلته المدام وما فى المدام من لهو وقصف والعيشة العابثة
 التى جلبتها الحضارة — التى كانت مطبوعة بالطابع الفارسى —
 عن كل شىء ما عداها ، عن الفخر بالعرب وبأعجاد العرب . إنه
 ليمدح أصحابها مهما تكن دياناتهم وأعراقهم .

وهناك سبب آخر غير هذه الأسباب كان يحمل النواسى على
 مدح الفرس ، والتباعد عن العرب ، والزراية على عيشهم .

ذلك هو الغزل ، فقد كان مباحاً فى هؤلاء الجوارى اللاتى
 أكثرهن لسن من العرب . ثم الحالة النفسية للشاعر وهى أم
 من كل هذا . يقول النواسى :

فهذا العيش لا خيم البوادرى وهذا العيش لا اللبن الحليب
 فأين البدو من إيوان كسرى وأين من الميادين الزروب

فالبيت الثانى يشبه أن يكون جواباً عن حالة نفسية أو اجتماعية

اصطدم بها الشاعر . فهو جواب يقول في معرض التبجح والفخر
« نحن البدو » ولئن سألت ماذا يضير النواسى من هذا مادام
عربى الأب ومعنى ذلك أنه عربى ؟

والجواب أن ذلك يضره كثيراً . فهو أولاً صاحب لهو يهيمه أن
لا ينقص عليه أحد مجلسه بالفخر والمباهاة ؛ وثانياً وهو الأهم أنه
ليس بذى حسب يستطيع معه مجاراة المباهين . فأمه فارسية من
أسرة وضيفة ، وأبوه مهاجر من دمشق من جند مروان . يقال
إنه اشتغل فى الحياكة أورعى الغنم . وليس هو من بيت يفخر
به ، وقد أمضى النواسى عمره يتستر على نسبه . ولقى من مباهاة
العرب بأسرهم وآبائهم وأجدادهم العنت حتى كاد يكره بغداده
المدله بحبها لهذه العصبيات وسؤال السائل فيها : ابن من هذا ؟

فان سلمت و.ا قلى بنى ثقة	من السلامة لم أسلم ببغدادا
ما شئت من بلد دان منازمه	لكن فيه قيلات وأنفاذا
ليسوا كقوم إذا حاذبت مجلسهم	أثقت بالترك والاصماع إنفاذا
هناك لا تتخطى الأذن لأئمة	ولا ترى قائلا من ذا ولا ماذا

وهذه القصيدة قالها على أثر عودته من الحج ولا أعرف من
هم هؤلاء الذين لا تتخطى الأذن فى مجالسهم لأئمة ، ولا يسألون
جليسهم « من ذا ولا ماذا ؟ ؟ » ولكنى أرجح أنهم الفرس

ومجالسهم ، فلقد سبق للشاعر أن أطرى مجالسهم ومدحهم بأنهم
لا يفخرون بها ، ولا يتباهون كما يصنع العرب :

ولقارس الأحرار أنفس أنفس	ونفاري في عشرة معدوم
وإذا أعاشر عصبة عريية	بدرت إلى ذكر الفخار تميم
وعدت إلى قيس وعدت قوسها	سبيت تميم وجمعهم مهزوم
وبنو الأعاجم لا أحاذر منهم	شراً فنطق شرهم محسوم
لا يذحون على الزديم إذا انتشوا	ولهم إذا العرب اعتدت تسلم
وجميعهم لي حين أقعد بينهم	بتذل وتهيب موسوم

وأحب أن يقف القارئ عند كلمة (تذل وتهيب) التي ينعت
بها الأعاجم ، أتراها تدلُّ على تعاجم ؟ ؟ .

وتتكرر هذه المباهاة ، ويكثرون عليه من الفخر ، ويثقل
عليه ذلك ، حتى أصبح يشترط عليهم عدم ذكر الآباء والجدود
والفخر بهم في مجالس الشراب — على الأقل —

حقوق الكأس والندمان خمس فأولها التزين بالوفار
ونائها وإن كنت ابن خير السبيرة محتداً ترك الفخار
وما عسى أن تصنع هذه الأوضاع الماثلة ببغداد ، أنخاذ
وعصبيات وقخر بالآباء والأجداد ، وسؤال السائل — حتى في
مجالس الشراب — من هذا ؟ ؟ وابن من هو ؟ ؟ في زمنٍ
تتناحر فيه حضارة الفرس مع أمجاد العرب بالعصبية ، في أعصاب

أديب كأبي نواس قُصّارى فخره ما قاله للخصيب يوم سأله
 — أيضاً — عن نسبه : « إني امرؤٌ رفغني أدبي » . أئى
 رفعك أدبك ولكن سؤال السائل لا يزال يُطاردك . ابن من
 أنت ؟؟ وقد يكون السائل من حُثالات تميم أو أسد ، لا يملك
 نفراً بالحياة إلا أنه منهما . وقد ذكر الرواة أن رجلا اسمه حمدان
 ابن زكريا هجا النواصى بهذا البيت اللئيم :

أنت كما قد قيل فيما مضى قد ذل من ليس له ناصر

إننا لمضطرون إلى الاستعانة بالفلسفة الحديثة وإدخال
 « مركب إدلر » « الشعور بالنقص » فى هذه القضية . فأبو نواس
 يشعر بنقصه فى مجال الفخر بالعصبيات ، ومركب النقص يجيز له
 إلى أبعد الحدود أن يتعالى على هذه العصبيات فقد قال فى نوبات
 متعددة من شعوره بهذا النقص :

ومن تميم ومن قيس ولهما ليس الأعراب عند الله من أحد

وقال على لسان ندل فى خماره :

وما شرفنى كنية عربية ولا أكسبني لائى ولا نفرا

ومع هذا الكره الشديد للعصبيات لم يندفع معه ليفضل
 الفرس على العرب . فقارىء ديوانه لا يجد شيئاً من ذلك . فهو

لم يذكر من مناقب الفرس إلا ما يتصل بالشراب وعيش الحضارة
ببغداد . ولم يذكر للأعراب إلا عيشهم النكد وصحراءهم المجذبة،
لم يتعرض للعقل الفارسي والمناقب الفارسية ويفضلها على ما عند
العرب . وهو يفرق بين الأعراب والعرب . فالأعراب سكان
البادية لا صلة له بهم ولا وشيجة بينه وبينهم ، إنهم من البداوة
التي يمقتها .

أما العرب سكان الحاضرة فقد كان لا يرضن عليهم بالمدح إن
سكنت شياطين عصبياتهم ، وحبست عفاريت فخرهم « في قماقمها »
فهو يقول على لسان الخمر بعد أن ذكر لها أصنافاً من الخلق
فرجته أن « لا يمكنهم منها » :

ولا السفال الذي لا يستفيق ولا غر الشباب ولا من يجمل الأدبا
ولا الاراذل إلا من يوقرنى من السقاء ولكن اسقنى العربا

وفي هذا مدح وأى مدح ، وهو غير متهم فيه بالتناقض من
جماعة عصره لأنه : قال « وأين البدو من إيوان كسرى » . وكثيراً
ما كان يقول مثل هذا :

طربت إلى خر وقصف الدساكر ومزل دهقان بها غير دائر
بفتيان صدق من سراة ابن مالك وأزد عمان ذى العلا والمفاخر

وإذا جد الجدد وكان لا بد من الفخر بالعصية ولها عن
الكأس وخفت أصوات شياطين الشعور بالنقص . نخر وأطال
« بالمنية » كما رأى القارىء . أما الأبيات التي أوردها ابن منظور
« قرارتها كسرى وفي جنباتها » فالظاهر أن العرب في عصر
الشاعر ودونه بقليل فهموها على حقيقتها وعلى خلاف ما فهمها
ابن منظور وجماعته . فصاحب الرد على الشعوبية والمفاخر بالعرب
حتى بعصيم ومخاصرهم يوم الحفل (الجاحظ) لم ير فيها إلا
أنها طراز فذ من التصوير لم يسبق إليه . وهي كذلك لا من
حيث إنها طراز فذ ، ولكن من حيث إنها لا تمثل إلا التصوير
الشعري وليس فيها من التعاظم شيء . وفي الحق أن الاستشهاد
بهذه الأبيات على أعجمية النواصي يمثل سوء ظن به فلا يذكر
لفظة « عجم » حتى يتهم بالعجمة . وإلا فأى حرج على
الشاعر إن رأى كأساً حفر في جوانبها صورة كسرى ورجال من
الفرس فوصفها على حقيقتها ؟ فقد وصفها فارسية غير مرة
لأن فيها صورة فرس :

محفرة الجوانب والقرار
وكسرى في قرار الطرجهار

فخل يزالها في قعر كأس
مصورة بصورة جند كسرى

ثم وصفها صفة الفرس ولكن صورها رجال من الهند :
 بآنية مخروطة من زبرجد تخير كسرى خرطها ليصونها
 كأن رجال الهند حول إنائها عكوف على خيل تدير متونها
 ووصفها حيناً فإذا صورها من القسوس ذوى الصلبان
 ولعلمهم من الروم :

ملس وأمثالها محفّرة صور فيها القسوس والصلب
 يتلون انجيلهم وفوقهم سماء خمر نجوها الحب
 ومثل ذلك قوله :

بنينا على كسرى سماء مدامة مكللة حافاتها بنجوم
 ويقول صاحب العمدة : « وكان النواسى شعوبى اللسان وما
 أدرى ما وراء ذلك » ووراء ذلك ما بيناه . وابن رشيق كان
 حذراً فى نعتة بشعوبية اللسان ، فما يجوز أن يوصف النواسى
 بأكثر من ذلك .

زندقة

يسهل على المنقب فى شعر أى شاعر — مهما صلحت عقيدته
 واشتهر بتقواه — أن يقع له على أبيات تغمزه فى عقيدته وتقواه .
 ويسهل على المنقب أيضاً فى شعر أى شاعر اشتهر بإلحاده أن يعثر

له على أبيات تلحقه بذوى الكرامات . وأى شاعر أشهر بالتقوى
من العتاهى ؟ ومع ذلك فقد ذكروا « أنه كان متذبذباً فى
دينه ^(١) » وأنه قد تزندق فى كثير من الأبيات :

يا رب لو أنسيتها وعى فى جنة الفردوس لم أنسها
إن المليك رآك أحسن خلقه ورأى مثالك
فخذا بقدرة نفسه حور الجان على مثالك

وأى شاعر اشتهر بالإلحاد فى العربية شهرة أبى العلاء وهو القائل :

أدين رب واحد وتجنب فيبح المساعى حين يظلم دائن
لعمري لقد خادعت نفسى برهة وصدقت فى أشياء من هو مائن
يحدثنا عما يكون منجم ولم يدرك إلا الله ما هو كائن

ومرد ذلك — على ما أعتقد — هو أن الشاعر يترجم عن
عواطفه أولاً ، وهذه العواطف تسكن وتثور ، وترضى وتغضب ،
فتجىء بحالاتها هذه التى يترجمها الشاعر شعراً ، بما يحمل على
الإيمان ، وما يحمل على الجحود ، وفى الشئ وتقيضه . وقد يكون
الشاعر لم يقصد هذا كله أو قصده فى لحظة ولم يقصده فى كل
الاحظات . ويجىء مؤرخو الأدب فيقول أحدهم آمن الرجل ،
ويقول غيره بل أغرق فى الإلحاد ، وكلهم يدلل على قولته

بحديث لحظة من تلك اللحظات التي مرت بحياة ذلك الشاعر .
وليس هذا هو الحق والصواب ، وإنما الحق والصواب أن تمزج
هذه اللحظات التي تكوّن حياة الشاعر ، ثم يمزج معها حالة
مزاجه ، ويستخرج من هذا كله حديث الإيمان والجهود .
وهكذا يجب أن يكون الأمر في زندقة النواسى .

يقول الجاحظ : « وأما النواسى فقد كان يتعرض للقتل بجهده
وقد كانوا يتعجبون من قوله :

كيف لا يدنيك من أمل من رسول الله من نفره

فلما قال :

أحب قريشاً لحب أحدها واشكر لها الجزل من مواهبها
جاء بشيء يغطى على الأول^(١) ، وكلمة الجاحظ صادقة ، وليست
كلها . فقد كان المجنون يطغى على هذا الشاعر فيتعرض للقتل
بجهده ، ولكنه كان يأتى بأشياء تغطى على أشياء فتحتاج
إلى غير قليل من التروى . فالتقوى ليست من طبيعة هذا الشاعر
الماجن . ويذكر ابن منظور أن النواسى أنشد في مجلس شراب :

يا ناظراً في الدين ما الأمر ؟ لا قدر صح ولا جبر
ما صح عندي من جميع الذي تذكر إلا الموت والقدر

فامتعض أصحابه وأعلموه أنهم منحرفون عن صحبته ، فقال لهم :
ويلكم والله إني لأعلم أن المجون يفرط على وأرجو أن أتوب
فيرحمني الله . ثم قال « :

أية نار قدح القادح وأى جد بلغ المازح
وأتم قصيدته .

ويقول ابن قتيبة في كتابه « الشعر والشعراء » : ومما كفر به
أوقارب ، ثم ذكر بيتين يطول فيهما الاختلاف أهمله أم لغيره .
وقوله في مدح الأمين :

تنازع الأحمدان الشبه فاشتبهها خلقا وخلقاً كما قدَّ الشراكان
وقوله :

يا أحمد المرتجى في كل نائبة قم سيدى نعص جبار السموات
ونحبُّ أن نسجل هنا أننا نشك في البيت الأول الذي قيل
إنه قاله في الأمين . إذ لا يعقل أن يقوله في خليفة ويذيعه بين
الناس مراعاة للخليفة عند الناس على الأقل .

ويقول الجرجاني^(١) : « لو كان سوء الاعتقاد سبباً لتأخر
الشاعر لوجب أن يمحي النواصي من دواوين الشعراء ويحذف

اسمه » . ويقال هذا ويقال أكثر منه عن النواسى إذا أخذنا
ظاهر مجونه ولحظة من لحظات حياته . ولكنه لا يجوز إذا أخذنا
حياته تامة الحلقات . فبيت الشعر غير المؤمن فى أشعاره ، يستطيع
دارس شعره أن يضع قبالة عشرات الأبيات المؤمنات إذا كان
المول فى تقدير زندقة الشاعر على هذا فحسب . وليس هو فى
هذا ، وإنما هو فى الحالة النفسية التى هى من وراء شعر الزندقة
والإيمان . فالحالة النفسية التى وراء بيت من الشعر يقوله
(بشار) مثلاً هى غير الحالة النفسية وراء بيت فى معناه يقوله
النواسى . وكأن الناس يفرقون بين الحالتين . فالعرب تقول آمن
فلان وكفر شعره . وحالة النواسى النفسية لم تكن لتساعده على
زندقة مفرقة وكفر ، ولكنها تساعده — أتم مساعدة — على
التظرف بالاستهانة بالفاظ الدين .

فهو ما جن ، مفرط فى مجونه ، والمجون يستدعى بعض المرات
ليزيد إمتاعه ، أن يستخف صاحبه بالألفاظ الموقرة للدين .
فالذى يقول :

حجج مثلى زيارة الحمار واقتنائى العقار شرب العقار
عاطى كأس سلوة عن أذان المؤذن

لا يقصد من هذا حالة من حالات الزندقة أو الكفر . وإذا حُلَّ
البيتان أكثر من حالة التطرف في القول، والفكاهة التي أرادها
مستملحة ، فقد ناءا به ولم يحتملاه . ولا يزال الناس في كل
حين يقولون مثل هذا في مجالس أنسهم وغلبة السرور عليهم ثم
لا يحسبهم الناس زنادقة أو ملحدين .

وكان النواصي لا يشك في نفسه ولا ينكر منها إيمانها .
ويطمع أن يغفر الله له ذنوبه ما زال مسلماً «مقراً بالله وبوحدانيته»
مالى إليك وسيلة إلا الرجا وجبل عفوك ثم إني مسلم
ترى عندنا ما يكره الله كله سوى الشرك بالرحمن رب الشاعر
وقد كان لا يحسب نفسه حتى من الخطاة

لم وعفو الله مبذو ل غداً عند الصراط
خلق الغفران إلا ل امرئ في الناس خاط
ونحن نصدق هذا ، لا لأن النواصي يقوله ، فقد يقوله على
سبيل التقية ونفي الريبة — كما يزعم الجاحظ — بل لأنه يجري
وفاق طبعه ومزاجه .

ويطابق شعر النواصي ما ذكر الأغاني من أنه لم يكن يرى
في الزندقة أكثر من حديث تطرف :
وصيف كأس ، محدث ملك نيه مغن وظرف زنديق

ولم يكن يتصور إبليس أكثر من ظريف يعين على فساد .

لم يرض إبليس العين فعالنا حتى أعان فسادنا بفساد

وأين يقع هذا القول من قول بشار في إبليس وتفضيله إياه

على آدم ؟

وأشد ما روى للنواسي في الزندقة ما رواه المرزباني

في الموشح . وقد رواها الجرجاني في الوساطة بعد أن أسقط

البيتين الأولين .

بالجهل أوثر صحبة الشطار

إني لأعرف مذهب الأبرار

وصرفت معرفتي إلى إنكار

وتعجلا من طيب هذى الدار

علمي به ضرب من الأخبار

في جنة من مات أو في نار

وملحة في اليوم تحسب أنني

بكرت على تلومني فأجبتها

فدعى اللامة قد أطلت غوايتي

ورأيت إتياني اللذازة والهوى

أجدي وأحزم من تنتظر آجل

ما جاءنا أحد يخبر أنه

وذكر المرزباني^(١) أن الجمار قال له : « يا هذا إن لك أعداء

ينتظرون مثل هذه السقطات فدع الإفراط في المجون » فقال :

« لا والله » . فسمى الخبر إلى الفضل بن الربيع ثم إلى الرشيد

فما كان بعد أسبوع حتى حبس !! والأبيات أعمق مما تعودنا

أن نقرأه له في هذه المعاني . وهو فيها يقصد فكرة ومسألة عقلية

يحاول أن يقيم البرهان عليها . . . ثم تجيء قضية حبس الرشيد إياه بسببها فتقوى الشك في أنها موضوعة . على أنها لو كانت له فليست أكثر من حديث مجانة يستغفر الله منها، وينيب بعد حين .
فحديث الزندقة — عند النواصي — كما رأى القارىء في هذا الفصل هو حديث أعصاب متقلبة . وليس المستغرب منها هذه الحالات من الإيمان والتطرف الموفى على الزندقة ، وإنما المستغرب أن تكون إلى غير هذه الحالات ، ما برحت مضطربة غير مستقرة .

حج

وأخيراً سار إلى مكة حاجاً هذا الذى يقول :

حج مثلى زيارة الحمار واقتنائى العقار شرب العقار
وقال اليويو^(١) : وجعل يُلبى بشعرٍ ويحدوبه ويُطرب فغنى
به كل من سمعه وهو قوله :

إلهنا ما أعدلاك	ملك كل من ملك
ليك قد لبيت لك	ليك إن الحمد لك
والملك لا شريك لك	والليل لما أن حلك
ما خاب عبد أملك	أنت له حيث سلك

وفي هذه القصيدة - بوجه خاص - ما يدفع زعم من يتجنى عليه فيجعل حجه بسبب حجٍّ معشوقته « جنان » ، ومن الجائز أن تكون ذهبت للحج في السنة التي حج فيها وقد ذكر ذلك في بيتين :

حجبت وقلت قد حجت جنان فيجمعنا وإياها السير
وقوله :

وعاشقين انتف خداها عند الشام الحجر الأسود
ولعل البيت الثاني للتصوير لا للحقيقة ، ولكن من الظلم أن نعتبر أن حجه كان بسبب ذلك ، إن صح أن جنان حجّت في هذه السنة ، فالحج والتوبة وشرب الخمر والفجور أشياء قريبة من طبيعة هذا الشاعر الذي تتحكم فيه العاطفة .

والسنة التي حج فيها النوامي لا يقال عنها أكثر من أنها السنة التي حجّ فيها الفضل بن الربيع . وهذه سنة لا سبيل إلى تعيينها إلا بإحداث آخر لأن الفضل لم يحج بالناس .

يقول ابن مناذر الشاعر^(١) : إن الرشيد حينما حج بعد إيقاعه بالبرامكة وحج « معه الفضل بن الربيع » وكنت أملت فهايات

قولاً وقصدته به يوم التروية فإذا هو يسأل عني ويطلبني فبدرني الفضل فقال : « يا أمير المؤمنين هذا شاعر البرامكة ومادحهم » ، وقد كان البشر قد ظهر لي بوجهه فتنكر وعيس ، فقال الفضل : مره أن ينشد قصيدته فيهم :

أنا بنو الأملاك من آل برمك فيا طيب أخبار ويا حسن منظر

فما زالوا بي حتى قرأتها ثم أتبعته ذلك بأن قلت : « كانوا أولياءك يا أمير المؤمنين أيام مدحتهم » . فقال : « يا غلام الظم وجهه » فلطمته حتى أظلم ما كان بيني وبين أهل المجلس . ثم قال : « اسحبوه على وجهه . والله لأحرمنك ولا تركت أحداً يعطيك شيئاً » ، فانصرفت وأنا أسوأ الناس حالاً في نفسي وحالي وما جرى علي . ولا والله ما عندي يومئذ قوت عيالي لعيدهم ، فإذا بشاب قد وقف ثم قال : « أعزز على والله يا كبيرنا بما جرى عليك » فدفع إلى صرة فظننتها دراهم فإذا هي مائة دينار وقال « الصولى في خبره » فإذا هي ثلثمائة دينار ، فقلت : « من أنت جعلني الله فداك ؟ » قال : « أخوك أبو نواس ، فاستعن بهذه الدنانير واعذرني » . فقبلتها وقلت : « واصلك الله يا أخى وأحسن جزاءك » وهذه خلة ليست بمستفكرة من النواصي ، كرم وبر بالأصحاب .

وابن منذر كان في البصرة قبل أن ينتقل مرغماً إلى الحجاز .
أدركه النواسى فيها ونشأت بينهما مودة يذكرها صاحب الأغاني
في حديثه عن ابن منذر وعبد المجيد الثقفى الذى تهتك فى حبه .
هذا الشاعر الأخير هو ابن بانة مولاة جنان فأية قربى عاطفية
جمعت بين الشاعرين ؟

ويهمنا من هذه الحكاية أنها تُعين السنة التى حج فيها
الرشيد ومعه الفضل بعد مقتل البرامكة ولم يحج فى غيرها .
وفى طريق أبى نواس إلى مكة وقعت له الحادثة التى يرويها
الصولى ورواها الذين نقلوا عنه « وهى اجتماعه بفتاة بدوية عند
ذهابه ، ومعها فتيات كواعب بسنها عند إياه ، وإنشاده إياها
شعراً ما زال يَحْتال فيه عليها حتى سمرت وأبانت من محاسنها
الخفية ما أطار البقية الباقية — التى تركتها ظباء السواد —
من عقله . ثم احتالت الفتاة وصويحباتها عليه فأدخلته غاراً
« فضر بن إزارى على باب غار فعدلت إليه ، وأدخلت فيه .
وأبطأن على » ، وأنا أتشوف إلى دخول واحدة منهن إذ دخل على
أسود كأنه سارية . . .

وعاد النواسى إلى بغداد فأقبل الناس — كالعتاد —

« يباركون له في الحج ، ويهنئون به بسلامة العودة وظنوا أن الأمر كله جد ، وأنه إن حجّ فقد زهد وقد تنسك ، وهو لم يرد كل هذا وإنما أراد الحجّ توبة من خطايا قديمة يحطها عن ظهره ليحمل غيرها .

حججت رجاء الفوز بالأجر قاصدا لحط ذنوب من ركوب الكبائر ولم يرده نسكا وكان لا يزال له في اللذائذ وطلايبها ولع وشوق فهتف من أعماقه :

قالوا تنسك بعد الحج قلت لهم أرى وأرجو وأخشى طيرنا باذا أجل إنه ليرى . . . ويرجو ذلك ولكن :

ما أبعد النفسك من قلب تقسمه قطربل ققرى بنى فكلواذا فعاد يواصل ما انقطع — ولعله لم ينقطع — من سيرته ، ويروى ظمأ هذا القلب المعمور بحب الجمال .

نهاية المطاف

سجن الشاعر

أمر الرشيد بسجن النواصي وأمر الأمين — في خلافته — بمثل ذلك ، وقد أمضى في سجن الأمين ثلاثة أشهر ذكرها في

شعره فذكرها الطبرى فى تاريخه وذكرتها بعد ذلك كتب الأدب
مضت لى شهر مذ حبست ثلاثة كأتى قد أذنت ما ليس يغفر
أما مدة سجن الرشيد فلم يذكرها النواسى فى شعر ولم تذكرها
كتب التاريخ . واكتفت الرواية الأدبية بقولها ، وأطال حبسه
وأخرجه الأمين فى خلافته .

أما السجن فهو عقوبة « إدارية » كما تقول بلسان اليوم ،
أوقعها الخليفةتان بهذا الشاعر بسبب السياسة . ومن أسباب
السياسة ما لا يجوز اطلاع الناس عليه . فلا بد من انتحال
أعذار ، وخلق أسباب لتسويق الموقف . وهكذا كان الشأن
مع شاعرنا . فقد أخذ بالخر والحجون والزندقة حتى ذاعت هذه
الأسباب ، وكادت تغطى على السبب الحقيقى . يقول ابن قتيبة :
« وقال له الرشيد يا ابن اللخناء أنت المستخف بعصا موسى نبي الله
إذ تقول :

فإن يك باقى سحر فرعون فيكم فإن عصا موسى بكف خصيب
وقال لإبراهيم بن نهيك — رئيس شرطته — لا يأوى إلى
عسكرى من ليلته . فأقام عند إبراهيم حتى مات هرون
وأخرجه الأمين »

وذكر ابن جامع عن بعض أصحاب أبي نواس ورواته قال: « كان أبو نواس قال أبياتاً منها :

وقد زادني تيبها على الناس أنى أرانى أغنام وإن كنت ذا عسر
ولو لم أتل نغراً لسكان صيانتى فى عن سؤال الناس حسبي من الفخر
ولا يطعن فى ذاك منى طامع ولا صاحب التاج المحجب بالقصر

فبعث إليه الأمين وعنده سليمان بن أبي جعفر فشتمه أقبح شتم وقال : كيف تقول ولا صاحب التاج المحجب بالقصر وأنت الذى تتكسب بشعرك أو ساخ أيدى اللثام ؟ فقال سليمان : وهو — يا أمير المؤمنين — من كبار الثنوية ، وشهد بذلك من كان موجوداً فأمر بحبسه .

ومنهم من يذكر أن الأمين إنما حبسه على قصيدته التى أولها :
إسقىنيها يا دفاه مرة الطعم سلافه

وقصيدته :

ألا فاستقى خمراً وقل لى همى الخمر . ولا تسقى سرّاً إذا أمكن الجهر

وقصيدته :

جاء بها زينة ذهبية فلم نستطع دون السجود لها صبرا

وقد ذكروا أنه جاء به — بعد أن سمع هذه القصائد — وقال له : « أنت زنديق وكافر » وأمر بحبسه . واختلاف هذه

الأسباب يوهم القارىء أن الأمين حبسه غير مرة ، والصواب أن الحبس لم يكن إلا مرة واحدة في زمن الأمين ، ومثلها في زمن الرشيد .

وكان حبس الأمين إياه بسبب حديث خراسان الذى أسلفنا البحث فيه . وقد جمع صاحب كتاب « الوزراء والكتاب » هذه الأسباب كلها بعد أن ذكر كلمة الفضل بن سهل فكانت كأنها تعلات لا أكثر . كلمة الفضل هي السبب والعلة قال : « إن النواسى كان ينادم محمداً ويخص به وله معه أخبار مشهورة فقال الفضل ابن سهل يزرى على محمد به ويعيبه باستعماله إياه : كيف لا يستحل قتال محمد وشاعره يقول في مجلسه ما لا ينكر عليه » ألا فاسقنى خيراً وقل لى هى الحخر » ؟ فبلغ ذلك محمداً فأمر بإحضار النواسى وعنده سليمان بن أبى جعفر . وقد كان اتصل بمحمد عنه أنه قال قصيدته التى يقول فيها « وقد زادنى تيهاً » وقصيدته « إسقنيها يادفافه » فلما دخل عليه « ثم تم صاحب الكتاب ما ذكره الطبرى من شتمه واتهامه بالزندقة ثم الأمر بحبسه . فظاهر من هذا الحديث أن السجن فى زمن الأمين لم يكن إلا مرة ، ولم يكن له من سبب غير كلمة الفضل بن سهل .

أما سجن الرشيد فلم تكثر فيه الروايات ، وتنوع الأسباب ، كثرتها وتنوعها في سجن الأمين . إذ كان السبب السياسى فيه لا يخشى من إذاعته ما يخشى من إذاعة السبب في سجن الأمين من قدح في الخليفة وسياسته . فالمعروف المشهور - وإن اختلفت الرواية بعض المرات - أن الرشيد أمر بسجنه لقصيدته التى هجا فيها قبائل عدنان ، وأخفش ولم يعف عن قريش :

إن قريشا إذا هى انتسبت كان لها الشطر من مناسبتها
إن فاخرتنا فلا افتخار لها إلا التجارات من مكاسبتها

والخليفة من قريش ومن عدنان ، وأقر بأوه وعمومته منها . فلا شك أن هذه جرأة من النواصى قليل لها السجن . ولم يعف عنه لرشيد ولم يخرجه ، وإنما الذى أخرجه هو الأمين ، فكم مكث في سجن الرشيد ؟ . .

ذكرنا أن النواصى مدح العباس منصرفه من الحج عام ١٩٢ للهجرة . وذكرنا أنه لم يحج في الناس إلا هذا العام . فالسجن قد وقع بعد هذا التاريخ . والحجيج كان يقدم دار السلام في محرم ، فالسجن أحرى أن يكون في أواخر هذا الشهر . وقد توفي الرشيد في اليوم الثالث من جمادى الآخرة عام ١٩٣ هـ فتكون مدة

السجن أربعة أشهر تنقص أو تزيد قليلاً . ومدة سجنه في كلتا
المرتين ليست بالبالغة فهي أشهر سبعة أو ثمانية ، ولكنها كانت
ثقيلة على نفس رجل كأبي نواس تلهبه العاطفة ، وتفتك بصبره
فهو يكتب إلى الفضل بن الربيع كثيراً يلحف عليه بالرجاء
ويكتب إلى والديه ويكتب إلى كل من يتوسم فيهم الخير .
وإنك لتشفق على الشاعر وتكاد تضحك من نفاد صبره إذ تراه
يكتب إلى رجل اسمه عبد الله بن نعيم ليذكر أخاه كاتب الفضل
ابن الربيع ليذكر هذا الأخير بأمره :

فاسبق أبا عبد الإله بها	واجعل لعقبك ذخراً نجلاً
كلم أخاك يكلم الفضلاً	وليلى حسناً كما أبلى
إني وصلت بك الرجاء على	بعد المدى إذ كنت لي أهلاً

ومثل هذا في شدة اللفة ونفاد الصبر ما كتبه إلى الحسين

ابن عيسى بن أبي جعفر المنصور :

رفع الصوت فنادى	يا أبا عيسى الجوادا
كن عماداً يا ابن من كان	ت غياناً وعماداً
وتدارك جسداً قد	مات أو قد قيل كاداً
قل له إن قال هل تا	ب نعم تاب وراداً
واضمن التوبة عمن	كلا أطراك عاداً

ويحتاط للأمر فلعل هؤلاء العظماء ينسونه ، ويهملون غوثه .

فليبعث بأشعاره إلى عبيد الخادم مولى أم جعفر وإلى حسين
الخادم مولى هرون ، وإلى غير هذين .

وكل ما نظمه النواسى في سجنه وكتبه إلى من طلب عندهم
الشفاعة ليس له كبير قيمة من الناحية الفنية ، وإنما هو يمثل
رجلاً ضيق الصدر ، نافذ الصبر ، همه أن يخرج من هذا الضيق
الذى لم يعتده ولا تحتمله أعصابه بما فى ذلك القصيدة التى
كتبها للرشيد :

بفوك لا مجودك عذت لا بل بفضلك يا أمير المؤمنين
ففى هذه ال « لا » المتكررة أثرٌ من حالة السجن ، واضطراب
أعصابه . والأبيات الباقية كلها فى مثل هذا الاضطراب

فشنع حسن وجهك فى أسير يدين بحبك الرحمن ديننا
فالمنى فى هذا البيت سوقى وعامى جاء فى تركيب مضطرب
متعاضل . والأبيات التى تكاد تكون مستملحة هى الأبيات
التي كان النقاد القدماء يرون أنه أسف فيها . ومع أن فيها إسفافاً
ففيها شئٌ من خفة روح النواسى ، لا تقع على مثلها فى سائر
مقولاته وهو فى السجن قال يخاطب الفضل :

أنت يا ابن الربيع ألزمتنى النسك وعودتني والخير عادة .
فارعوى ناطلى وأقصر حبلى وتبدلت عفة وزهاده

لو ثرائى ذكرت للحسن البصرى فى حسن سمته وقتاده
 المسايح فى ذراعى والمصحف فى لبثى مكان القلاده
 فادع بى لا عدمت تقويم مثلى وتفتن لموضع السجاده
 لو رآها بعض المرائين يوماً لا شترها بعدها للشهاده
 أليس فى هذه الصورة التى رسمها لنفسه ما يُغرى على
 الضحك والفكاهة ؟

ونحب أن نشير إلى شيء وهو أن النواسى فى سجن الأمين
 أحب أن يصدق أنه إنما سجن للخمر وفى سبيل الزندقة التى هو
 منها براء فلم يذكر السبب الحقيقى وهو السبب السياسى ، لأن
 ذكره مما لا يجوز لاتصاله بسمعة الخليفة . فانصرف همه إلى
 تبرئة نفسه من ناحية « ما أشيع » من حديث الخمر والزندقة .
 وفى هذه التبرئة تبرئة للخليفة . ولا شك أن الأمين كان يرتاح
 لأقواله هذه ولا سيما حين يقول إن الأمين منعه عن شرب الخمر ،
 ولعله كان يشربها وهو يقول :

نالى بالسلام فيها إمام لا أرى لى خلافة مستقيما
 فاصرفاها إلى سوى فإنى لست إلا على الحديث نديما

إذ ليس المهم شربها أو عدمه ، وإنما الأهم أن يعلم الناس
 وأهل خراسان أن الأمين ليس كما وصف رجلهم ، يترخص فى

الحجر ويقول شاعره : « ألا فاستقنى خمراً وقل لي هي الحجر » ولا يعاقبه على ذلك .

وفاته

تختلف سنة الوفاة كما تختلف سنة الميلاد ، فهي في عام ١٩٨ للهجرة على رواية الخطيب في تاريخ بغداد ، بعد أن ذكر السادسة والتسعين والسابعة والتسعين بعد المائة . وهي ١٩٩ هـ على رواية ابن قتيبة . ونرجح رواية الخطيب ونظنها ١٩٧ هـ جرية لسبب واحد . وهو أننا لا نرى للنواصي شعراً في النكبات التي توالى على بغداد في هذه السنين ، ولا نحس له بوجود . فإذا كانت هي سنة الوفاة ، فتكون وفاته عن اثنتين وخمسين سنة . ونوافق في ذلك ابن قتيبة ، لأنه قد ذكر أن هذا عمره وإن كنا خالفناه في سنة الوفاة .

أما القصائد التي رويت له في رثاء الأمين ، فالأرجح أنها منحولة . وأبروع هذه القصائد القصيدة التي منها :

طوى الموت ما بيني وبين محمد وليس لا تطوى المنية ناشر
وقد ذكر صاحب الأغاني أنها لأشجع السلمي .

وليس من المعقول أن يعيش النواصي في أيام الفتنة ولا يكون له فيها شعر ، وقد أكثر الشعراء من القول والنظم فيها .
أضاع ؟ ؟ ولم لم يضع غيره وفيه هجاء للمأمون وقواده ؟ ولعلّ هذا الغموض في سنة وفاته ، لأنها سنة وقعت في هذه الأيام السود التي مرّت على بغداد .

ولم يذكروا العلة التي توفي منها والظاهر أنه اشتكى من أوجاع :
دبّ في الفناء سفلا وعلواً وأراني أموت عضواً فعضوا
وروى الشافعي — رحمه الله — قال : « دخلت على أبي نواس
فقلت له : ما أعددت لهذا اليوم ؟ » فقال :

تعاظمني ذنبي فلما قرنته بعفوك ربي كان عفوك أعظما

الثقة بالله . وإني لنعم الزاد والعدة .

ثم توفي وقبر في مدافن الشونيزية .

الفهرس

الصفحة	المحتوى
5	بغداد
10	جوار وخمور وأشياء بينهما
16	الناس
19	نسب الشاعر ونشأته الأولى
32	علمٌ ولهوٌ
36	مع والبة
43	في دنيا الرشيد والأمين
57	عند الخصيب
62	مع الأمين
70	غنى بين الحقيقة والخيال
82	معيشة ومذهب
94	شاعر جديد
104	عصبية بين الفرُس والعرب
116	زندقة
123	حجٌ
127	نهاية المطاف ، سجن الشاعر
135	وفاته
137	المحتويات

تنويه: هذا الفهرس ليس من أصل الكتاب ؛ وإنما أعدده تسهيلاً للوصول الى المواضيع .

م. سرمد حاتم شكر السامرائي

اقرأ

سلسلة كتب شهرية للجيوب يشترك في تأليفها
أشهر الكتاب في مصر وسائر البلاد العربية
تصدرها مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

آراء بعض كبار الأدباء

- « مشروع هليل القدر كبير الفائدة عظيم الأثر في
تفذية الأدب والثقافة » ...
- « زاد فكري في مختلف أبواب العلم والأدب يستفيد
الجمهور وترضى عنه الخاصة » ...
- « لهذه السلسلة جهد في سبيل نشر الثقافة وترقية
الشعب وإزالة الفروق بين الطبقات » ...

التمن بالنسخة

مصر	٥٠ مليما	سوريا ولبنان	٦٠ غرشا
السودان	٥٥ مليما	العراق	٦٠ فلسا
فلسطين وشرق الأردن ٦٠ مسلا			